محمد الماغوط

شاعر الغضب والحب

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

محمد الماغوط
شاعر الغضب والحب

إعداد ودراسة: هاني الخيِّر

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث /محمد الماغوط/شاعر الغضب والحب

إعداد ودراسة: هاني الخيِّر

الطبعة الأولى: 2017

عدد النسخ: ألف نسخة

الترقيم الدولي: ISBN 978-9933-22-113-3

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - جرمانا

هاتف: 00963115627060

00963115637060

تلفاكس: 00963115632860

ص.ب: 259 جرمانا

www.darrislan.com

نعم كان صوتي الشعري يعلن عن ولادة تيار شعر عربي يقوم على الواقعية، وعلى الصورة المبهرة، وعلى رفض الالتزام بالقافية والوزن الشعري، وعلى خلق إيقاع خاص مستنبط من سبكي للجملة، بعيداً عن القوالب الجاهزة واللغة والحشو، والإضافات التي كانت تفرض نفسها على شعراء تلك الفترة.

محمد الماغوط

إضاءة

محمد الماغوط: [1934 – 2006م]

شاعر الغضب والحب

محمد الماغوط.. قامة شعرية شامخة، لا مثيل لها، في ديوان الشعر العربي الحديث، وحالة خاصة، لا مثيل لها، بين أقرانه الكبار أو الذين جايلوه، نظراً لموهبته الفذَّة في ابتكار صوره الشعرية التي هي نسيج وحده، وكذلك أصالته الجمالية الفطرية من حيث دلالات اللغة وإيماءاتها المدهشة النازفة بالوجع الإنساني الذي لا ينضب، والغارقة بين الأمل المشرق واليأس القاتم.

لهذا السبب وغيره.. اعتبره معظم النقَّاد المنصفين، الأب الشرعي لقصيدة النثر التي حرَّرها من النمطية وعبودية الشكل المتوارث تثاؤبياً عن السلف القديم. وفي الوقت نفسه حاز، بامتياز، لقب مبتكر مدرسة (الضحك الأرقى الأسود)، التي تضحكنا حتى الإعياء، ثم ننفجر بالبكاء على خيبتنا، حين نكتشف بعد فوات الأوان وخراب البصرة ووصول السكين إلى نخاع العظم، هول ما جرى ويجري في سورية من تدمير ممنهج، ومن فظائع وويلات ونكبات، قد لا تخطر في أذهان روّاد أدب الخيال العلمي.

وللحقيقة والتاريخ.. فإن الماغوط كان ينتظر، بذعر، قدوم هذا الخراب العشوائي الوحشي الذي لحق بالحضارة السورية الراهنة العظيمة، شأنه شأن العرّافة (زرقاء اليمامة)، والشاعر أمل دنقل، وزميله صلاح عبد الصبور، في تحذيراتهم لأبناء قومهم من شرّ مستطير سيداهمهم، قريباً، لا محالة.

وللأسف الشديد.. فإن تحذيرات محمد الماغوط المبكّرة، وكلماته المشحونة بالمرارة والألم واستشراف المستقبل، مرَّت على معظم الناس، من خلال مسرحياته وأشعاره ومقالاته، مرور الكرام على مائدة البخلاء اللئام، أوليس هو القائل علانية وبحضور الملايين:

«قد يستطيع الإنسان أن يهرب من بيته، ومن عمله، ومن دائنيه، ووطنه، من ماضيه وحاضره، ولكن هل يستطيع أن يهرب من مستقبله؟!!.

إن مسرحية «شقائق النعمان» ليست إجابة على هذا السؤال، بل هي صرخة في بيداء الضمير العربي، من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لا من أجلنا نحن أطفال التقسيم وشباب تشرين وكهول الاجتياح، بل من أجل كل أطفالنا وكل ما هو نقي وبريء وأعزل أمام الداخل والخارج.

فرغم عمليات الصقل والتلميع التي تجري هنا وهناك... لهذه الأمة فإن التصُّحر الفكري والأخلاقي والإنساني قبل الزراعي، أخذ يزحف علينا من جميع الجوانب.. فهل نعترف بهذه الحقيقة؟! أم نترك لدارسي الأساطير أن يثبتوا في المستقبل أن القرود الهندية التي لا ترى ولا تسمع، ولا تتكلم، ليست أسطورة هندية بل حقيقة عربية».

ولد محمد الماغوط في بلدة (سلمية) من أعمال محافظة حماة العام 1934، في أسرة رقيقة الحال تعاني من شظف العيش والبؤس الاقتصادي ما تعانيه.

وبلدة (سلمية) المنسية، يومذاك، على الخارطة السورية، تقع بين تخوم الصحراء المرصَّعة بنجوم الليل الأزلية وبدايات العمران المدائني، ويتوزعها الأمراء والوجهاء والفقراء، الذين يمتهن معظمهم الزراعة المتواضعة أو الأعمال الحرة البسيطة التي بالكاد تطعم الأفواه الجائعة.

وكانت (سلمية) وما حولها في الزمن الغابر، قاعدة عظيمة لثوّار أشدّاء تصدوا ببسالة للحملات الصليبية المتلاحقة، التي تريد احتلال المنطقة العربية، فباءت محاولاتهم المستميتة بالإخفاق، وأذاقهم هؤلاء الثوَّار مرارة الموت، وقطّعوا أوصال جيوشهم الزاحفة كالجراد البشري... لتلتهم بشراهة الثقافة والحضارة.

وبعد أن حصل محمد الماغوط على الشهادة الابتدائية، أدخله والده المدرسة الزراعية في (سلمية)، وهي مدرسة داخلية قريبة من منزل الماغوط. وفي هذا

الشأن يقول شقيقه الأديب عيسى الماغوط ما لفظه:

«في المدرسة الزراعية لم يكن لدى الطّلاب كتب، وإنما ينقلون على دفاترهم ما يكتبه المعلّم على السبورة. وكان محمد يكتب بخطّ جميل، ويرسم ويلوّن بشكل يذهل معلّميه ورفاقه... ولكن عندما يحضر إلى البيت عصر الخميس من كل أسبوع، يحيل البيت إلى حالة من التشنج والهياج بسبب طلباته المدرسية، واحتياجاته الشخصية، وكان يرفض حالة انعدام النقود رفضاً رهيباً.. وكان يكره الفقر كرهاً أسطورياً.

ذات يوم أراد أن يأخذ مني العشرة قروش التي كنت أحتفظ بها للطوارئ. وقد تعاركنا بالأيدي وبالأرجل، وأطاح بي أرضاً، ثم تمكنت من أن أَطيح به، وصار تحتي فوضع أصبعه في عيني، فصرخت «وكأننا كنا نقوم بمباراة لها أصول مثل المصارعة» صرخت عا العين؟

فردّ عليّ وهو يضحك: يم الزلف!! وضحكت والدتنا عندما سمعت ذلك وقدمت نحونا، وخلصتنا من بعضنا، وانتهينا إلى تسوية بأن يأخذ هو خمسة قروش وأحتفظ أنا بالخمسة قروش الباقية. وقد ذاعت وقائع هذا العراك.. وصار رفاقه وإخوته يقولون لي تهكماً: عا العين!!».

وبعد حصوله على الشهادة الإعدادية، عمل والده لتسجيله في ثانوية (خرابو) الزراعية الواقعة في غوطة دمشق، والتي كانت تمنح الطّلاب المنامة ووجبات الطعام بالمجان، ولكنه لم ينهِ دراسته في هذه الثانوية، بالرغم من أنه كان بحاجة إلى سنة دراسية واحدة للحصول على شهادة «البكالوريا» الزراعية، لضيق ذات يده وعجز والده على تأمين نفقاته المالية المتواضعة... ولإيمانه برسالة الشعر العظيمة.

وبعد أن أمضى عدة أشهر في دمشق، أمضاها في كتابة الشعر بعد انقطاع، تبلغ بوجوب الالتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية، فاستجاب للحالة الجديدة وأصبح جندياً في الجيش العربي السوري.

وتشاء المصادفة السيئة، وحدها، أن يتعرض العقيد المجاز عدنان المالكي رئيس الشعبة الثالثة في هيئة أركان الجيش السوري، إلى حادثة اغتيال في يوم الجمعة 22 نيسان 1955، حيث أطلقت عليه ثلاث رصاصات في الملعب البلدي بدمشق، أثناء حضوره مباراة في كرة القدم بين فريق الشرطة في الجيش السوري وفريق خفر السواحل المصري. وقد أودت هذه الرصاصات بحياته الغالية. واتّهم الحزب القومي السوري الاجتماعي بالوقوف وراء هذه الجريمة، فتمّ اعتقال المئات من نشطاء الحزب وكان من بينهم محمد الماغوط.

وهكذا وجد نفسه وراء الشمس.. وبمكان أدق في سجن المزة العسكري. وكان في التاسعة عشرة من عمره. وضمن السجن تعرّف إلى الشاعر أدونيس الذي كان أيضاً من نشطاء الحزب القومي السوري. ويبدو أن تجربة السجن التي استمرت حوالي التسعة أشهر، أثّرت على نفسيته وأضعفت شجاعته بعض الشيء، بل وصل الأمر به إلى الانسحاب من الحزب القومي السوري، وكذلك فعل أدونيس، وتنكّرا معاً لهذه التجربة السياسية التي استحوذت على تفكيرهما، يومذاك، بعد أن كانا يتغزلان بسورية الطبيعية... وبزعيم الحزب، وعينيه الحالمتين. وحين غادر الماغوط السجن، التحق بقطعته العسكرية لإنهاء خدمته الإلزامية المتعثرة فكان له ما أراد.

وبعد تسريحه لم يعد بإمكانه الاستمرار بالإقامة في دمشق، لإخفاقه في تأمين وظيفة تتيح له تسديد نفقات حياته اليومية البسيطة، ما دفعه، دون تردد، للرحيل إلى بيروت للقاء أدونيس، صديقه في سجن المزة، حيث كان يقيم في منزل مع زوجته الأديبة الناقدة خالدة، التي بدورها كانت تستضيف شقيقتها الشاعرة سنية الصالح. وفي هذا المنزل تعارف محمد الماغوط وسنية، فأصبحا زوجين فيما بعد.

دخل الماغوط عبر أدونيس إلى (مجلة شعر) المثيرة للجدل، من خلال قصيدته الشهيرة (القتل)، التي أثارت إعجاب واهتمام أسرة التحرير وزوّار

المجلة، ولكنه لم يكمل مسيرته مع جماعة (مجلة شعر) لخلافات فكرية.

واختار الماغوط الأرصفة والمقاهي والفنادق، وبيوت الأصدقاء أمكنة للتواجد فيها، حتى يأخذ مكانه الطبيعي في عالم الأدب، بعد أن نضجت تجربته وفلسفته الحياتية، واكتوى بأسيد الكلمة الواعية، والأهمّ أنه استرد توازنه النفسي وأزاح الخوف من أغوار أعماقه.

عمل محمد الماغوط لسنوات طويلة في (مجلة الشرطة) السورية، التي أغناها بمقالات ثقافية ناقدة وبحكايات ساخرة، كانت حديث الناس وقتها، نظراً لرشاقتها اللغوية التي تحبس أنفاس القارئ.

ثم أعطيت له زاوية أسبوعية في (صحيفة تشرين) السورية، بالتناوب مع صديق عمره الأديب المرموق زكريا تامر، ليشكِّلا ظاهرة فريدة في تاريخ الصحافة السورية في القرن العشرين.

وفي هذا المقام.. فإن القارئ لا يستطيع أن يفصل بين كلام محمد الماغوط العادي وشعره. بين صوته وشعره. بين تسكعه في آخر الليل، قبل صياح الديك، وشعره. محمد هو شعر. هو كلماته وحروفه، برأي الناقد بول شاوول.

يعتبر محمد الماغوط أن أجمل ما في الحياة: الشعر والحبّ فهما قطبا الحياة، وبدونهما لا يستقيم الوجود. ويرى أيضاً أن القصيدة في الوقت الحالي لا تستطيع أن تفعل شيئاً فهي مثل بخار الماء الذي يتصاعد يوماً بعد يوم، وفصلاً بعد فصل، لتكون بعد ذلك السحب التي تتحول إلى أمطار.

أما أسلوبه الشعري والأدبي، فهو يتصف بالتركيز الشديد المشحون بالتوتر الحاد وببراءة اللغة النضرة. وكذلك يمتاز أسلوبه بالتكثيف البعيد عن اللغة الإنشائية والمترادفات اللغوية، التي يُراد منها استعراض العضلات الأدبية المتورمة بالمنشطات. ويبقى طموحه الكبير أن تصل كلماته وأفكاره إلى الأعماق الإنسانية وخلجات الضمير والوجدان، دون جواز سفر أو تأشيرات قنصلية.

أعماله الأدبية:

- حزن في ضوء القمر، (شعر) 1959.
- غرفة بملايين الجدران، (شعر) 1960.
- الفرح ليس مهنتي، (شعر) 1970.
- العصفور الأحدب، (مسرحية) 1960.
- المهرج، (مسرحية) 1960.
- خارج السرب، (مسرحية) 1999.
- الأرجوحة، (رواية) 1974.
- سأخون وطني، (مقالات) 1987.
- سيّاف الزهور، (نصوص) 2001.
- شرق عدن.. غرب اللّه، (نصوص) 2005.
- البدوي الأحمر، (نصوص) 2006.

مسرحيات مشتركة مع الفنان دريد لحام

- ضيعة تشرين.
- غربة.
- كاسك يا وطن.
- شقائق النعمان.

أفلام سينمائية:

- الحدود.
- التقرير.

مسلسلات تلفزيونية

- حكايا الليل.
- وادي المسك.

محطات خاصة في تاريخ محمد الماغوط

- فاز محمد الماغوط في أوائل الستينيات بجائزة أحسن قصيدة نثرية في مسابقة جريدة النهار. وكان جميع أعضاء اللجنة مع منح جائزة للماغوط، باستثناء الشاعر أدونيس (عديله)!!

- أحبّ سماع القرآن الكريم بصوت الشيخ علي عبده في سلمية، وبصوت محمود خليل الحصري، وكثيراً ما جلس الماغوط يصغي لترتيل المقرئ المصري عبْر «كاسيتات» بصوته الجميل.

- تزوج الماغوط من الشاعرة سنية صالح، فصار (عديل) الشاعر أدونيس، ويقول الماغوط: (كان كابوساً أن تعيش ابنتينا شام وسلافة، كما عاشتا هي وأختها خالدة زوجة أدونيس مشردتين قبل الزواج[1] فانصرفت إلى تربيتهما تربية عالية).

- سافر الماغوط بدعوات رسمية إلى روسيا، وألمانيا، وفرنسا، واليمن، وعمان، وغير هذه الدول.. كما عمل مشرفاً ثقافياً على صحيفة (الخليج) الإماراتية بين عامي 1981 - 1982.

- العام 1973 أصدرت دار العودة في بيروت الأعمال الكاملة للماغوط، متضمنة العديد من أعماله الشعرية، ثم تابعت المهمة دار المدى في دمشق وأصدرت أعماله الأخيرة.

- كان يعتبر الشاعر ابن بلده سليمان عوّاد، الملقب بأبي رياض، معلّمه في الشعر، ومن أهم من كتبوا الشعر النثري. ويقول عنه: إنه ظُلم كثيراً في حياته وبعد مماته.

- اتهم الفنان الكبير عادل إمام بأنه سطا على فكرة فيلم «الكباب

---

1 من شطحات الشاعر الماغوط، لأن أسرة الصالح من الأسر المحترمة في منطقة الساحل السوري وتربطهم صداقة متينة مع أهلي وشقيقاتي.. (هاني).

والإرهاب» منه.

- تُرجمت بعض أعماله إلى لغات عالمية: الإنكليزية، والفرنسية، والفنلندية...

- مُنح العام 2002 وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى، من قبل السيد الرئيس بشار الأسد.

- منح جائزة سلطان عويس الثقافية من دولة الإمارات العربية المتحدة العام 2005.

- غادر محمد الماغوط عالمنا في دمشق صباح الإثنين 2006/4/3م، ووري الثرى في بلدته (سلمية) مسقط رأسه ظهر الأربعاء 2006/4/5.

وكانت الجموح الغفيرة: من رسميين، وسياسيين، وأدباء ومثقفين، ومحبين ومريدين، قد شيعته إلى محطته الأخيرة في موكب مهيب.

أما زوجة الشاعر محمد الماغوط الشاعرة سنية صالح، فقد تم دفنها في المقبرة القديمة الواقعة بجوار ضريح السيدة زينب بدمشق، وكتب الماغوط على شاهدة قبرها هذه العبارات المؤثرة:

هنا ترقد

آخر طفلة في التاريخ

الشاعرة الغالية

سنية صالح (1935 - 1986م)

وخلاصة القول.. فإن الماغوط كاتب مبدع في حقول أدبية ثلاثة، برأي الباحث جان داية، هي: المقالة، والمسرحية، والشعر. ولعلّ أهم معالم إبداعه في الحقول الأدبية الثلاثة، هي السخرية حيث تشكل المبالغة أحد عناصرها الأساسية.

محمد الماغوط

في مرآة الحوار ووجع الأسئلة

[مقتطفات]

(الحوار الأول)

حاوره الأديب عادل أبو شنب

س: متى ولدت؟ وأين؟ وكيف؟

ج: في سلمية عام 1934، في مجتمع وسط بين الرعوية والحضرية، أما كيف عشت فيها، مطلع حياتي، فبإحساس بالظلم، وبفقدان العدالة الاجتماعية والاقتصادية؛ لأن مجتمع سلمية كان منقسماً إلى أقلّيّة من الأمراء وأكثريّة من الفلاحين والرعاة... وأسرتي الماغوطية تتوزّع بين ملاّكين وفلاحين، لكن فرعنا ينتمي إلى الفلاحين: أبي أحمد الماغوط، وأمي ناهدة الماغوط، وإخوتي السبعة (خمس شقيقات وشقيقين). كان أبي يعمل بعرقه في الأرض.

س: في أي سن ختمت القرآن الكريم؟

ج: بين السنة الخامسة والسنة السادسة من عمري؟

س: ماذا كنت تكتب يا محمد وأنت طفل؟

ج: خواطر وانطباعات. هل تعرف أنني كنت أحاول في الرسم!!

س: كنت تريد أن تصبح رسَّاماً إذاً؟

ج: ظاهرة الرسم تقلّصت في الكبر عندي، لتمتد وتتطاول وتتعملق الظاهرة الشعرية، أو لأقل: الظاهرة الكتابية.

س: ما الذي جنيته من الانتماء إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي؟

ج: سوقي إلى السجن في منتصف الخمسينيات، بعد مقتل العقيد عدنان المالكي، وقد اتهم بعض عناصر الحزب بتدبير الاغتيال، وتمت ملاحقة جميع أفراد الحزب، مع أن كثيرين كانوا أبرياء، وأنا منهم، وأدونيس الذي كان نزيل سجن المزة أيضاً.

س: ألم تستفد من هذه التجربة؟

ج: كانت التجربة سبباً في انفتاحي على موهبتي، وجعلتني شاعراً دون أن أدري، أؤكد دون أن أدري.

س: وقصتك مع نزار قباني؟!

ج: كان مقهى (الهافانا) في دمشق، ملتقى الأدباء والشعراء والمثقفين والمناضلين والوطنيين والثوريين، وحتى لاعبي الورق والنرد. وقد دخله الشاعر نزار قباني «ابن دمشق» وسأل عني. كان قد قرأ لي بعض القصائد.

ولما عرف أنني أؤدي خدمة العلم الإجبارية دهش، ولم يصدّق!!

س: ولماذا دهش؟

ج: لفت الأنظار إليّ في تلك المرحلة أن بواكيري كانت جديدة في مضمونها وواقعيتها، وغرفها مما كنت أعاني منه، ويعاني جيل بكامله، ولفت الأنظار إلى الصور الجديدة التي جئت بها في قصائدي.. والتي كانت نقيض التأنق اللفظي والزخرف الكلامي، ولفت الأنظار، ثالثاً، أن الشعراء والمثقفين والأدباء العرب عامة، كانوا يحومون في ماء التجربة والعبثية والوجودية، وبقية المدارس التي كانت رائجة في الغرب في تلك الفترة.

س: لكن كثيرين يقولون: إن ما تكتب ليس شعراً؛ لأنه بلا وزن ولا قافية ولا روي؟

ج: ليقولوا ما يشاؤون. إنه إلهام شعري قد ركبني، بهذه الصيغة، سمِّه شعراً طلقاً.. إنه شعر.. شعر.

س: كيف دبّ الخلاف بينك وبين دريد لحام؟

ج: كان الخلاف حول مفهوم المسرح، وإلى أي حدّ يجوز التلاعب بالنص والأفكار. كان دريد يريد أن يمارس هذا التلاعب دائماً.

وبعد أن شاهدت ما حلّ بالمسرحية الجديدة «شقائق النعمان» التي قدمها دريد على (مسرح الشام) حدثت القطيعة بيننا.

س: مع أنكما تركتما بصمة في تاريخ الفن في سورية والعالم العربي؟

ج: نعم. ولكن هذا ما حدث.

س: والآن القطيعة مستمرة؟

ج: لا.

س: كيف؟

ج: سمع أنني مريض، فجاء لزيارتي. كان مريضاً مثلي. الآن هو يزورني ويشرب القهوة معي، إنه فنان.. وأنا آنس الجانب الطيب في الإنسان. تصور إنه يزور قبر «أم شام» (المرحومة سنية) في السيدة زينب، كلما كان هناك هذه لفتة إنسانية في دريد.

س: ما هو مرضك؟

ج: اسمع عندما رآني الطبيب وعاين موضع الألم في رقبتي، قال بالحرف الواحد: «من كان يريد أن يصفيك، أنت لُكمت في موضع الألم من قبل محترف»!!

س: ولكنك هربت من العملية في باريس؟!

ج: أجل خفت.. خفت.. والأطباء الفرنسيون لم يعتبروا العملية ضرورية.

س: لكنك لست خائفاً. أنت تشرب وتدخن؟! وها قد سمنت؟

ج: أشرب وأدخن.. ها هو قدري.. والسمنه بسبب القعدة المستمرة.

س: ألا تبرح بيتك أبداً؟

ج: لكنني ما أزال أنتج.. هذا ديواني الجديد «شرق عدن غرب الله»، خذْ واقرأ ما تزال الشاعرية على حالها.

(الحوار الثاني)

حاوره الروائي خليل صويلح

س: هل تذكر أول قصيدة كتبتها؟

ج: أذكر أول قصيدة نشرتها كانت بعنوان «غادة يافا»، وقد نشرت في مجلة «الآداب» البيروتية. ولأن هذه المجلة لم تكن تنشر لأحد إلاّ إذا كان اسمه مسبوقاً بلقب كبير، فإنني استعرت لقب دكتور ووضعته أمام اسمي، رغم أنني لم أحصل إلاّ على الشهادة الابتدائية فقط، من مدرسة داخلية. وحين نشرت القصيدة على صفحات «الآداب» صعق مأمور البلدية، وهو شاعر أيضاً، إذْ إنه منذ سنوات، كان يرسل قصائده إلى المجلة، دون أن تنشر له بيتاً واحداً. ولما سأل عمن يكون «الدكتور محمد الماغوط» قال له وجهاء البلدة: إنه «لا دكتور ولا من يحزنون»، بل هو مجرد فلاح تشققت كعوب قدميه من العمل بالأرض، فازداد الرجل عجباً واستغراباً.

س: قلت مرة، إن السجن صنع منك شاعراً، حين كتبت قصيدة «القتل»؟

ج: حين كتبت قصيدتي هذه لم أكن أعلم أنها «شعر». كنت أكتب معاناتي في السجن فقط لا غير، وظللت أكتب وأكتب على أساس أن ما أكتبه مجرد مذكرات سجين يتعذب، ويتألم ويتأوه فقط، وليست قصيدة على الإطلاق، وقد كتبتها على ورق التبغ وهرّبتها خارج السجن، ولكن حين قرأها أدونيس، قال: «هذا شعر»، فقلت : هل أنت متأكد مما تقول؟ قال: «نعم».

وفي إحدى جلسات مجلة «شعر» قرأ أدونيس قصيدتي بحضور يوسف الخال، وأنسي الحاج، والرحابنة، دون أن يعلن عن اسمي، ترك المستمعين يتخبطون (بودلير؟.. رامبو)، لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إليّ، وقال: «هذا هو الشاعر».

س: وما الذي أثار جماعة «شعر» في قصيدتك؟

ج: وقتها كان الشعر العربي غارقاً في متاهات جدلية عن الوجود والعدم، وألغاز تفصلها مئة سنة ضوئية عمَّا يدور على الأرض، أما أنا فكنت غاضباً وجائعاً أتحدث عن «قمل» السجن، والقدم الحجرية للسجّان على قلبي، وعن التوابيت وساحات الإعدام، وشفاه غليظة لرجال قساة، وعن الحلم الذي انطفأ، وابتساماتنا وأهدابنا قائمة.

وكما قالوا لي وقتها: «لقد خرجت بالشعر من صومعته إلى المقهى».

س: ما هو الصدى الذي تركته مجموعتك الشعرية الأولى «حزن في ضوء القمر»؟

ج: اتهمت وقتها بأنني هدّام، وسوداوي، ومتشائم، وضد المرحلة البهيجة التي تنتظرها الأجيال المقبلة.. وأعتقد أنه بعد هذا الزمن الطويل من البهجة، صار الشاعر مضطراً أن ينوح، وأن يبدِّل هويته إلى غراب.

س: نقّاد الحداثة الشعرية، اعتبروك رائد قصيدة النثر ومكتشفاً لقارة الشعر الجديد؟

ج: لا يهمني هذا الأمر إطلاقاً. عندما بدأت الكتابة بهذا الأسلوب، لم أكن أعرف أنني أؤسس شيئاً أو أهدم لغة أخرى.

لكنني اكتشفت بعد سنوات ومن خلال أقوال النقّاد والشعراء، ومن بينهم نزار قباني وأدونيس، أنني وأنسي الحاج، أول من حاول تأسيس شيء جديد. طبعاً فرحت وقتها، لكن فرحي لم يطل، إذ علمت، من بعض النقاد أيضاً أن ما أسَّسناه سكنه غيرنا من الشعراء، فهنيئاً لهم هذا الاحتلال المؤقت.

س: الآن حيث تنظر إلى تجربة شعراء الستينيات، كشاعر رائد في هذه التجربة، كيف تقيّمها؟

ج: كما ينظر الرجل الوحيد إلى صورة عائلية قديمة، تآكلت أطرافها وغطَّى الغبار ملامحها. صورة حقيقية، ولكنها شوِّهت نتيجة أخطر مونتاج سياسي

عرفه الإبداع العربي: الفم أصبح مكان الأذن، والأذن مكان الفم، والعين محل الحاجب، والإطار مكان الجميع.

وأنا لا أدّعي لنفسي الريادة في أي شيء، ولست سبّاحاً أو طموحاً في الوصول إلى الباص أو البيت أو المقهى. وليس هناك ما يشرّف بالادعاء أنني حققت شيئاً أو أضفت شيئاً إلى الشعر العربي الحديث. وبالمقابل أرفض أي شاعر آخر، سيخدعني بالقوافي المضللة، وسأتركه تحت قدميّ، وأتابع طريقي في كتابة الشعر عن فضح المأساة المروّعة بين الإنسان والحرية.

س: كمال خير بك، قال: إن قصيدة النثر بدأت مع محمد الماغوط، وليس مع أدونيس ويوسف الخال وأنسي الحاج!!

ج: هذا يعني أنه لا زال في هذا العالم من يقول الحقيقة. وأن الوفاء ممكن والحرية ممكنة. وأن أيام الجوع والرعب والنوم في علب القمامة أمام قصور بيروت لم تذهب سدى.. لكنني لا أرغب بعداوات جديدة ؛ لأني صرت في الحركة الشعرية العربية، وفي قصيدة النثر بالذات، مثل تروتسكي في الحركة الشيوعية. ولا أريد بلطة على رأس في آخر العمر.

س: قلت مرة : إن الشعر القديم نصفه شعر ونصفه الآخر غوغاء، فماذا تعني بعبارة «نصف شعر»؟

ج: الشعر الكلاسيكي هو نصف شعر؛ لأنه شعر قيلولة ومناسبات وتتويج هذا وخلع ذاك.

وهذه ليست قضيتي أبداً. حتى لو كتب شكسبير قصيدة في تتويج ملك فلن أقرأها، ولكن لو كتب عن أحد الخدم في ذلك الاحتفال لقرأته بشغف، الشعر الكلاسيكي مهما قيل فيه، ورغم احترامي لثرائه وعائلته العريقة وحسبه ونسبه، فإنه ما يزال شعر طرب واستجداء وتصفيق.

س: لعلك من أكثر الشعراء ممارسة للغربة والتشرد والخوف، فماذا أعطتك هذه التجربة؟

ج: ماذا أعطتني؟ لقد سلبتني كل شيء.

س: أعتقد أنك كتبت الشعر كي تدافع عن نفسك، أكثر مما كنت مهموماً بالحداثة والتجديد والريادة؟

ج: أنا إنسان محاط بالرعب، خائف من الإرهاب، خائف من المستقبل، وقد لجأت إلى الشعر كما الإنسان البدائي المطارد يلجأ إلى جذع شجرة. أنا شاعر في مجتمع سواده الأعظم يعاني الإرهاب والجوع ومساوئ الحياة، الشعر خطر، وهو محرض وكاشف، والشاعر مستهدف، وعندما أكون مطارداً أو محاصراً، عندما أكون ملتصقاً بجذع الشجرة التي تربها الفؤوس، لا أستطيع، وليس لديّ الوقت لأبحث عن بحور الشعر أنقّب عن القوافي. مهمة الشعر هي الدفاع. والشخص المهدد لا يهمه نوع السلاح الذي يدافع به عن نفسه.

س: إلى أي حدّ تمكّن الشعر الحديث من استيعاب هموم الجيل المعاصر والتعبير عنها؟

ج: بالقدر الذي تستوعب فيه النملة بيدراً بمفردها، لماذا؟ لأن رفاق الدرب وسفراء كثيرون خانوا الأمانة وتخلوا عن كل شيء تحت ستار كثيف من الكلمات الجوفاء والشعارات المضللة. أما ما يتردد عن التجاوز والتخطي فهي مجرد شعارات تتردد مثلها مثل بعض المعزوفات السياسية التي تتردد منذ النكبة هنا وهناك. والمشكلة أنه كلما ازداد عدد الشعراء، ازدادت هموم هذا الجيل، وإلاّ فلماذا يزداد الفقر واليأس والضجر والريبة.

إن الذي استوعب هذا الجيل بهمومه وأحلامه بصدق وإخلاص، ليس الشعراء والأنظمة، بل هي الخمّارات والسجون والمنافي.

س: زمن التسكع والتشرد والسجن قد انتهى من حياتك! ماذا يعني لك ذلك؟

ج: إذا كنت تعتقد بأن الجلوس إلى مكتب أو مائدة، ثم الاضطجاع على سرير أو في المقهى هو استقرار واطمئنان، فأنتَ مخطئ.

هذه «الامتيازات» إن هي إلاّ عتبة، نحو دهليز الفراغ الرهيب. إن ارتداء أفخر الثياب، وتناول وجبة طعام، ومضاجعة امرأة، أشهى امرأة، لا تستغرق إذا راعينا عصر السرعة أكثر من ساعتين في اليوم.

فماذا أفعل بالاثنتين والعشرين ساعة المتبقية؟ هل أضعها في البنك؟

إنني مثل السجين الذي ظل يحفر نفقاً في زنزانته لمدة عشرين عاماً، ثم اكتشف أن النفق الذي حفره، يقوده إلى زنزانة أخرى.

(الحوار الثالث)

حاوره الأديب الناقد عبده وازن

س: هل تعتبر أنك صنعت نفسك بنفسك؟

ج: أجل صنعت نفسي بنفسي ولم أكن في حاجة إلى أحد!!

س: لماذا لم تحاول أن تتعلم لغة أجنبية؟

ج: لم يهمني هذا الأمر. لم أتعلّم أي لغة أجنبية ولم أحاول طوال حياتي. لا جَلَدَ لي على اللغة الأجنبية. إنني أحب الكسل والفوضى.

س: أدونيس عاش ظروفك نفسها لكنه درس وتعلّم!

ج: أدونيس شاعر مجتهد.

س: لكن قيمتك الشعرية تكمن في أنها آتية من صلب الحياة نفسها!

ج: ربما، أنا شاعر طالع من الحياة والتجربة، وليس من الثقافة والكتب.

س: هل قرأت كثيراً في حياتك؟

ج: لم أكن أقرأ كثيراً.

س: هل هناك كتب أثّرت فيك مباشرة؟

ج: لا أذكر كتاباً بعينه. كافكا قرأته بالعربية. وكذلك رامبو. فيرلين ورامبو أحببتهما كثيراً. وهناك بودلير. لكنني قرأت لهم مختارات وليس دواوينَ بكاملها.

س: وشعراء النهضة العربية؟

ج: هؤلاء لم أقرأ لهم كثيراً. اكتفيت بما درّسونا من قصائدهم في مدرسة القرية.

س: والشعر العربي القديم؟

ج: قرأت بعضه حتى المتنبي لم أقرأ ديوانه كاملاً. قصائد فقط. وكذلك

العصر العباسي لم أقرأه كله. جبران قرأته كاملاً. وأحببت طه حسين.

س: كيف تعلّمت أصول اللغة العربية؟

ج: في القرآن. تعلّمت في القرآن الكريم اللغة العربية. وقوة اللغة لديّ آتية منه. لديّ إحساس عميق باللغة. وكنت درست القواعد على شيخ المدرسة أيام المراهقة.

س: سعيد عقل منحك جائزته في السبعينيات!!

ج: أجل، حصلت على جائزته وكانت قيمتها حينذاك ألف ليرة لبنانية وصرفتها بسرعة.

س: لماذا اختارك سعيد عقل، هو الشاعر الذي يرفض قصيدة النثر؟

ج: قال عني سعيد إنني الشعر شخصاً. وقال: إنه أعطاني جائزته مع أنني لست لبنانياً ؛ لأنني «مرسحي كبير».

س: هل تحب شعره؟

ج: أحب سعيد عقل كثيراً مع أنه نقيضي. يكفي أن يقول: «مشوار جينا عَ الديني مشوار».

س: لك ذكريات مع الأخوين رحباني أيام بيروت؟

ج: كتبت ثلاثة أرباع «المحطة» باللغة العامية، ولم يهمني أن يضعوا اسمي. ومسرحيتي «المهرج» استوحوا منها مسرحية «ناس من ورق» وأعطوني ألف ليرة لبنانية. المصاري كانت لها قيمة في تلك الأيام.

س: هل كنت تشارك في لقاءات مجلة «شعر» أو ما يُسمى «خميس المجلة»؟

ج: أجل، كنت أشارك. لكنني كنت أضجر فأنسحب. لم تكن تهمني النظريات ولا الآراء النقدية. وفي بيت يوسف الخال كنت أنسحب إلى البراد وآكل، فيما النقاش حامٍ. إنني أكره الحركات الجماعية وأحبّ الوحدة.

س: يقال دوماً: إنك شاركت في ثورة مجلة «شعر» من خلال القصائد الجديدة التي كتبتها!

ج: من الممكن أنني شاركت في ثورة «شعر» ولكن لا أعرف كيف. وكنت أقرأ هذه المجلة وأشارك فيها.

س: كنت على صداقة حينذاك مع أدونيس؟

ج: أجل، على رغم اختلافنا شعرياً، كل واحد لديه اجتهاداته الخاصة. وإنجازاته الخاصة. أدونيس شخص كريم. وعلى رغم ما حصل بيننا أظل أحبه. أما شعره فلا أحب منه سوى «أوراق في الريح» و«أغاني مهيار الدمشقي».

س: ومن أحببت من شعراء مجلة «شعر»؟

ج: أنسي الحاج صديقي الدائم. أحب لديه رغبته في التجريب. وهذه موهبة. شوقي أبي شقرا أحبه كثيراً، أحبّ جوّه الطفولي ولغته الجديدة فعلاً. ومرة أحييت أنا وشوقي أمسية شعرية مشتركة في الجامعة الأمريكية حضرها بدر شاكر السيّاب. كان شوقي يكتب حينذاك قصيدة التفعيلة، لكن صوته كان خفيضاً فيما كان صوتي ملعلعاً. وكان كلما وصل شوقي إلى القافية يمر القطار ويطغى صفيره عليها. وعندما انتهت الأمسية قال له السيّاب: «بطحك» الماغوط، فرد شوقي: إنه القطار.

س: ونزار قباني؟

ج: أحبه كثيراً في غزلياته. أما شعره السياسي فلا. أحبّ أيضاً بدوي الجبل. أحببته في مطلع حياتي. وكذلك نديم محمد. ولكن كما قلت لك لم تكن قراءاتي كثيرة.

س: لماذا لم تحاول أن تكتب قصيدة موزونة ومقفاة في مقتبل حياتك، كما فعل شعراء كثيرون من المدرسة الحديثة؟

ج: لم أحاول أن أكتب قصيدة عمودية أو موزونة. أنا غير مقتنع بالقصيدة العمودية. إنني شخص لجوج وتلقائي وسريع. وهمومي لم تكن تسمح لي بالبحث عن القافية. كنت هارباً وجائعاً ومتشرداً أبحث عن مخبأ أو ملجأ يؤويني.. ولم يكن لديَّ وقت للقافية. (يشتم القافية).

س: قصيدة النثر كانت قادرة أكثر على احتواء مأساتك؟

ج: أجل. وأنا اخترتها بالصدفة. وأحببتها حباً من أول نظرة وأول كرباج (يضحك). إنها طريقة في التعبير الشعري، طريقة بديعة.

س: أصبحت خلال ديوانك الأول «حزن في ضوء القمر» أحد روّاد هذه القصيدة، ولكن من دون أن تدرك بعدها النظري!

ج: لم أعرف كيف أنظّر لقصيدة النثر. أنا كتبتها وأكتبها ولا يهمني البعد النظري. هناك من نظّر لقصيدة النثر من دون أن يكتبها.

س: أنسي الحاج كان رفيقك في كتابة قصيدة النثر، لكنَّ بينكما اختلافاً كبيراً. فأنسي جاءها من الحياة والثقافة في آن واحد، فما رأيك؟

ج: لا أحبّ أن أتكلّم عن قصيدة النثر لدى أنسي. أحب شعره فقط.

س: ألم يساورك أي شك في القصيدة الجديدة التي تكتبها؟

ج: لا. إنني أحترم أية قصيدة ولو كانت فاشلة. ولا أهزأ من أي قصيدة. أما خطب الرؤساء العرب فلا أحترمها ولو كانت صادقة وجدية. المرحلة كلها التي نعيشها غير جدية.

س: والحداثة كيف فهمتها؟

ج: كتبتها ولم أنظر لها. وإذا قيل لي إنني شاعر حديث، فهذا لا يعني لي شيئاً. ما يهمني هو الشعر.

س: وإذا قيل عنك إنك لست حديثاً؟

ج: لا يهمني، أنا شاعر حديث ولست تقليدياً. وأصلاً أنا لا أردّ على الذين ينتقدونني. لم أحسد أحداً في حياتي. حتى عندما كنت في السجن لم أحسد أحداً. وأعتقد أن الذين يهاجمونني هم قلائل. وأتذكّر ما قاله عني جوزيف حرب: محمد الماغوط مثل فيروز لا أحد يختلف عليه. أحياناً أحزن من مقالات فيها تجنٍّ شخصي عليّ. هذا ما يحزنني فقط. التجني الشخصي أمر مقيت.

س: أثرك الشعري بارز بوضوح في نتاج الكثير من الشعراء الجدد.

ج: هذا يفرحني. أمر جميل أن أجد أثر قصائدي لدى الشعراء الشباب، إنني أعطيت أكثر مما أخذت.

س: كان هناك صراع في الستينيات بين مجلة «شعر» ومجلة «الآداب». لماذا انحزت إلى «شعر» ولم تنشر في «الآداب»؟

ج: حاولت «الآداب» أن تساومني وطلبت مني أن أكتب قصيدة عن جمال عبد الناصر. وقال لي سهيل إدريس: إنه ينشرها في الصفحة الأولى. رفضت طبعاً. أنا أرفض المساومة في الشعر. عبد الناصر أحببته بعد رحيله. عندما كان حياً كتبت مقالات ضده في جريدة «الصدى العام» في دمشق.

س: وماذا عن الوحدة المصرية - السورية حينذاك؟

ج: كانت هلاكاً لنا وكنت ضدها.

س: تكتب الكثير من المقالات لكنك لم تكتب مرة مقالة نقدية أدبية!

ج: لا أذكر إن كنت كتبت عن كتاب أعجبني. لكنني لم أكتب بتاتاً نقداً أدبياً، النقد هذا ليس مهنتي. وهو في رأيي تخريب. يقال: إن المبدع عندما يفشل يتحول إلى النقد. هذا أمر لا يهمني.

س: لكنك عملت في الصحافة الأدبية في جريدة «الخليج» الإماراتية؟

ج: أجل كان ذلك خلال العامين 1981 و1982.

س: هل تتذكر ماذا فعلت في هذه الصحافة؟

ج: حاولت أن أخلق في الصحافة الثقافية شيئاً جديداً. وأعتقد أنني نجحت في هذه التجربة القصيرة. ولم أواصل العمل الصحافي؛ لأنني مللت سريعاً. وأذكر أنني كنت محاطاً بشعراء شبابٍ في الإمارات ومنهم أحمد راشد ثاني.

س: أنت الآن في الثانية والسبعين هل فكّرت في الموت يوماً؟ هل تخافه؟!

ج: إحساسي بالحياة قوي، وذاكرتي قوية. لا أفكّر في الموت بتاتاً. أعتبر الموت مثل الصديق، ألعب معه لعبة «الطاولة».

س: هل تفكّر فيما وراء الموت مثل بعض الشعراء؟

ج: لا أعرف ماذا هناك بعد الموت.

س: هل أنت مؤمن؟

ج: أجل أنا مؤمن جداً. لكنني لا أصلّي. لا أحب الشعائر. يكفي أنني أكتب.

س: هل تشعر بأنك تنتمي إلى طائفة معينة؟

ج: لا أحس أنني أنتمي إلى طائفة. إنني أنتمي إلى أرض الله.

س: هل تعتبر أن جسدك خانك؟ ماذا تقول عن خيانته لك؟

ج: دائماً كنت أعامل جسدي كعدو والجسد ينتقم من ثم. الجسد حقود كالبدوي ولا ينسى. تخونك يداك يوماً، ثم جسدك كله.

س: والرغبة هل تخونك؟

ج: الرغبة تبقى في الروح.

س: ماذا يعني لك الكرسي المتحرك الذي تتنقل به؟

ج: أحب الكرسي المتحرك. إنه الآن صديقي. الكرسي المتحرك: هل هناك أجمل من هذه الصفة؟

س: هل تشعر بالخجل إذا شاهدك أصدقاؤك على الكرسي هذا؟

ج: بتاتاً. لا أشعر بأي نقص ولا بأي خجل. أصبح الكرسي صديقي. مثل العصا التي أتوكأ عليها. وأنا لم أخجل من شيء في حياتي ولم أندم على شيء. أنا أقول الأشياء التي يخجل الآخرون أن يقولوها.

س: في العام 1948 جئت إلى دمشق آتياً من قريتك (سلمية)، كيف تستعيد صورة الفتى الذي كنته؟

ج: لا أستطيع أن أتذكر بوضوح ذلك الفتى الذي كنته. تعيساً كنت وفقيراً ومتشرداً. كنت هارباً دائماً، وهذا الهروب عشته فترة.

س: هل عشت صدمة المدينة بعدما نزلت إليها من الريف؟

ج: لم تصدمني المدينة في المعنى السلبي عند انتقالي إليها. لا شيء يصدمنني في العالم. أمي كانت مقهورة ولم يغلبها شيء. لكنني عشت حياة فيها الكثير

من الفقر والقلق وعدم الأمان.

س: يحتل المقهى جزءاً مهماً من حياتك ونصوصك وذاكرتك، ماذا يعني لك المقهى؟

ج: المقهى وطني غير المحتل.

س: أي مقهى كان المفضل لديك؟

ج: أحببت مقهى أبي شفيق في دمشق كثيراً.

س: وبقية المقاهي التي كنت تجلس فيها مثل مقهى «الشام» الذي كنا نراك فيه؟.

ج: المقاهي تختلف بعضها عن بعض. ولكل مقهى جوه ووقته.

س: هل أنت شاعر مقهى؟

ج: منذ شبابي أجلس في المقاهي. أحياناً كنت أكتب فيها. أحياناً أقرأ. أحياناً أضرب مواعيد غرام. أحياناً أجلس دون أن أفعل شيئاً آخر. إنني أحبّ فكرة المقهى.

س: والشارع، ما قصة علاقتك به؟

ج: الشارع وطن أيضاً. الشارع سرير. حضن أم. عبّ جد. أحبّ الشارع أكثر من البيت. هذا الأمر كان أيام الشباب والصحة. الآن أحبّ بيتي. اليوم أصبح هو الوطن. لم يبق لي من العالم سوى هذا البيت.

س: لكنك تعيش في البيت حالة من العزلة، هل تتحمل مثل هذه العزلة؟

ج: أستطيع أن أعيش عشر سنين وحيداً، ولا أكلّم أحداً. إنني كائن يؤثر العزلة. بدءاً من الغروب أشعر بالكآبة وترافقني في المساء.

س: أنت شاعر حزين! هل حاولت أن تكشف سر هذا الحزن لديك؟

ج: لا. لم أحاول، إذا بحثت عن جذور هذا الحزن فإنني أخرّبه.

س: أي وقت هو الأنسب لديك للكتابة؟ الصباح؟ الليل؟

ج: لا وقت أستطيع أن أقول عنه: إنه الأنسب للكتابة. أكتب عندما أكون في

حاجة إلى أن أكتب. أحياناً تخطر في بالي فكرة أو لمعة وأنا على الطريق، فأسجلها على الدفتر.

س: ما الذي يحفزك على الكتابة؟

ج: حوافزي على الكتابة كثيرة. الظلم والقهر هما من أقوى هذه الحوافز. الحب. الألم. الحزن.. طوال حرب حزيران لم تسقط دمعة من عيني. أغنية لفيروز أو نجاة أو عبد الحليم حافظ تبكيني.

س: والنشيد الوطني؟

ج: لا يعني لي شيئاً ولا يهمني. عمري لم أسمع هذا النشيد إلى آخره. هنا تكمن أهمية الكرسي المتحرّك.. هم يقفون عند النشيد الوطني وأنا أجلس.

س: عندما تنظر إلى الشارع من نافذتك، هل تحنّ إليه؟

ج: كثيراً، لكنني لم أعد أخرج إليه. لم أعد قادراً على الخروج.

س: مدينتان تحضران في شعرك وحياتك: دمشق وبيروت! ماذا عن علاقتك بهما؟

ج: أحبّ هاتين المدينتين. هما الوحيدتان في حياتي. أحبّ بيروت أكثر من دمشق ولا أدري لماذا. دمشق طردتني وبيروت استقبلتني. فتحت لي أبوابها كإنسان وشاعر. فتحت لي منابرها ومطابعها ومجلاتها. أثّرت بيروت فيّ كثيراً كشاعر. بيروت كانت لي بمثابة الأم. كنت أحبّ مفاهيمها وأرصفتها، وكذلك شارع الحمراء الذي كنت أمشي فيه. بيروت تعيش في قلبي.

وما أقسى الذين شبّهوها بالعاهرة. هؤلاء لم يعرفوها. دمشق هي مدينة الذكريات أيام جئت فتى. أحب شوارعها وحاراتها. إنها تنام بين أوراقي.

س: ماذا يعني لك الفرح الذي قلت: إنه ليس مهنتك؟

ج: لحظة الفرح لا تجعلني أكتب. ولكن في أحيان يكون الفرح جميلاً ولو عابراً.

س: هل ما زلت تصرّ على أنك «حاجب على بوابة الحزن»؟

ج: أجل. هذه القصيدة أليمة حقاً.

س: ماذا يعني لك الالتزام شعرياً؟

ج: أنا شاعر مقاومة ولكن ليس على طريقة الشعراء المنبريين الذين يصيحون ويصرخون. الشعر مقاومة. والمقاوم يدخل في أي زاروب أو أي حارة ويخاطب الناس. وما لا أحققه من طريق الشعر أحققه من خلال المسرح أو المقالة أو السيناريو. إنني أحبّ القارئ ولا أتاجر به. أحبّ دائماً أن أعطي لا أن آخذ.

س: هل وجدت نفسك في المسرح مثلما وجدتها في الشعر؟

ج: أنا نفسي في الشعر والمسرح. وحتى في المقالة. ليس من اختلاف بين الشعر والمسرح ما دمت أعبّر عن همومي وأفكاري ومشاعري. أنا أكتب ولا همّ أن يكون ما أكتبه شعراً أو مسرحاً.

س: هل شعرت يوماً بأنك عاجز عن الكتابة؟

ج: لا مشكلة لديّ مع الكتابة أو مع الورقة البيضاء. إذا لم يكن لديّ قدرة على الكتابة لا أقترب من الورقة. الكتابة تأتي وحدها، هكذا بلا مقدمات.

س: والقصيدة كيف تكتبها؟

ج: أكتبها دفعة واحدة، ثم اشتغل عليها. اختصرها، أضبطها، أضيف إليها. أحياناً تكون القصيدة صفحة فتصبح سطرين. وأحياناً تكون سطرين فتصبح قصيدة طويلة.

س: هل شعرت يوماً بالملل من الكتابة؟

ج: لم أملّ من الكتابة في أي يوم. إنها حياتي. وسأظل أ كتب حتى آخر لحظة.

س: هل تشعر أحياناً بأنك تكرّر نفسك بين القصيدة والمقالة؟

ج: أنا لا أكرر نفسي، ولكن لديّ ثوابت: الحرية، الخبز، الحبّ.

س: هل ترمي نصوصاً لك لا تراها موفّقة؟

ج: لا أرمي أي نص. هناك في أي نص شيء ما.

س: هل تتابع ما يحصل في العالم؟

ج: أجل أتابع ما يحصل من بعيد. نشرة الأخبار لا أكمل مشاهدتها إلى النهاية. الخطب السياسية لا أتحمّلها. حتى مقالات المديح التي تكتب عنّي لا أقرؤها كلها.

س: ما السبب؟

ج: ربما لأنني إنسان ملول.

س: والبرامج التلفزيونية؟

ج: قليلاً ما أشاهد التلفزيون. والمسلسلات لا أتابعها. حتى الدراما السورية لا أتابعها.

س: أنت تحب الموسيقا؟

ج: كثيراً. عشت ثلاثين سنة و«الوكمان» على أذنيّ. أسمع الموسيقا ساعتين وثلاثاً يومياً. أحبّ بيتهوفن وشوبان وفاغنر وخاشا دوريان والرحبانيين... وكنت أحب الربابة، وأسمع القرآن الكريم مجوّداً.

س: الرقابة هل ما زلت تواجهها؟

ج: واجهتها كثيراً، حتى أصبح الرقيب في داخلي. لكن الرئيس حافظ الأسد قال لي مرة: اكتب ما تشاء ولن يراقبك أحد.

س: هل تأثرت لما يحصل في العراق؟

ج: كثيراً.

س: وفي لبنان؟

ج: تألمت كثيراً للاغتيالات التي حصلت في لبنان. هذا أمر يصعب تصوّره.

س: كيف تبدأ النهار؟

ج: لا أعرف متى أصحو ولا متى أنام. نومي أصبح قليلاً. أغفو، ثم أصحو، ثم أغفو، حتى ليختلط عليّ النهار والليل.

س: والوقت كيف يمضي؟

ج: أدعه يمضي وحده.

محمد الماغوط

شهادات.. وآراء.. وانطباعات

أبٌ شعري لا يقتل

بقلم محمود درويش

إذا كانت حياة الغائب مستمرة فيما يتركه الغائب من أثر فينا، فإن محمد الماغوط الشاعر ما زال حياً. هو أحد الشعراء القلائل، من جيل الروّاد أو جيرانهم، الذين لا تفتقد المتعة والبهجة حين تعود إلى قراءتهم. فهو لم يتمرد على التقليدية في الشعر بالانتماء إلى تقليدية حديثة أو حداثة تقليدية، بل شقّ طريقه الخاص غير مبالٍ بالتسميات والأطر. كان شامل التمرد على الصنمية السياسية وعلى النمطية التعبيرية معاً، وكان صوت الهامش الذي اقتحم المشهد الشعري وكسر كلّ ما يعترض تدفق موهبته الفطرية، الجامحة كتدفق السيل.

كان اختياره العفوي كتابة الشعر المنثور خالياً من التبشير النظري والادعاء المعرفي، وخالياً من الترهة النضالية إلى إقصاء الخيارات الشعرية الأخرى. كتب الشعر المنثور؛ لأنه يتسع لهيجانه، ولأن شعريته لا تتحقق إلاّ في هذا الشكل الذي أنجز على يديه شرعية جمالية واسعة، وكتبه لأنه ينسجم مع شغفه في أن يكون حراً كما يفهم الحرية، خارج النظام السياسي وخارج النظام الشعري معاً. وحين يختلف الشعراء والنقاد على الاختيارات الشعرية المعاصرة، فإن الماغوط يخرج من سياق هذا الاختلاف ؛ لأنه البرهان الساطع على ما يعنينا في الكتابة الشعرية، وهو العثور على الشعر.

كان، دون أن يقصد، أباً روحياً لا أكثر من جيل من شعراء قصيدة النثر، دون أن يتمكن أحد منهم من قتل أبيه الروحي.

المبرر الوحيد لقبولي لقصيدة النثر

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

محمد الماغوط شاعر فذ.. يكاد يكون شاعراً رغم أنفه، فهو لم يقصد بشعره أن يكون شاعراً بقدر ما قصد أن يقدّم نفسه، وبأن يقدم العالم كما يراه.

كان يكتب بغض النظر عن التزام ما يكتبه بشروط الكتابة الشعرية، بل أراد أن يكتب ما يتفق مع حاجته، فلم يسع إلى تحقيق مجد أدبي بقدر ما سعى إلى تحقيق نفسه، لهذا استطاع أن يصل إلينا.. فهو لم ينشغل بأن يكون رائداً ينقل شكلاً إلى الشعر العربي، بقدر ما انشغل أن يكون نفسه حتى آخر يوم في حياته.

إنه شاعر حقيقي، فرض وجوده على الحياة الشعرية، ليس لأنه قدّم شعراً جديراً بهذه الصفة، بل لأنه قدَّم شعره في شكل جديد لم يكن موجوداً من قبل... وسيظل حتى هذه اللحظة قابلاً للأخذ والرد.

رأيته العام الماضي حيث كنا في تأبين الشاعر ممدوح عدوان. زرناه في بيته، ووجدته ذات الشاعر الذي عرفناه، شاعراً حقيقياً وإن ظل مثقفاً متواضعاً.

ورغم ذلك فهو صاحب موهبة كبيرة، ويعتبر نتاجه الشعري المبرر الوحيد لوجود قصيدة النثر في الشعر العربي.

الماغوط والصوبيا

بقلم غسان الشامي

«في تمام الساعة السادسة من القرن العشرين حيث لا شيء يفصل جثث الموتى عن أحذية المارة سوى الإسفلت..» هذا وصف ماغوطي أصلي لعالم عاشه ونعايشه يستحق شاهدة باسقة في ساحة عربية كبيرة، لا خبراً في جريدة.

كنت أتابع أخبار هذا الكون بقتلاه وجرحاه وبوشه ورايساه عندما أنبأنا خبر مراسلتنا في دمشق أن الماغوط سيعود إلى صقيع باديته.. يا الله كم من الجثث نرسل في وكالات الأنباء يومياً إلى المقابر العارية إلاَّ من وحشة الموت والطغيان..، لكن موت الشاعر وحده يحيل العالم إلى.. جثة.

لأعترف ومن دون خجل أنني ما أحببت الماغوط كثيراً ؛ لأنني لمحت في مرسم سعيد مخلوف ذات خريف دمشقي ألماً في عيني سنية صالح، وعندما تتألم شاعرة منمّشة كرغيف نساء أسطوريات مثل سنيّة لا يمكنك أن تكنَّ ودّاً للذكر الذي تزوجته حتى لو كان من جنس الملائكة أو آلهة الإغريق أنفسهم.. لكن هذا لا يعني أنني لم أقتت على خبز الماغوط وخمره الشعري منذ ((حزن في ضوء القمر)) وحتى آخر حرف، أو لم أنزع مسحوراً إلى سخرية مقالاته ومساميرها وكأنها قصائد من نوع آخر.

ذات مرّة كتبت منتقداً الماغوط ؛ لأنه قال: إن انتماءه للحزب السوري القومي كان من أجل (صوبيا) في مكتب الحزب في بلدته الهائلة التنوع، الجارة الحقيقية للأندرين، سلمية، ونشرت مع المقال نصّ قسم الانتماء لهذا الحزب، وهو قسمٌ صعب ويحمّل المرء أخلاقياً وإجرائياً تبعات واسعة، مستغرباً كيف يمكن أن تقسم به من أجل صوبيا.. وفيما بعد تحسستُ حجم البرْدِ الدهري الذي كان يسري في جسد الماغوط فعذرته وكرهت.. الصوبيا.

لا شك أن الماغوط مجموعة من النقائض فهو لا معارض ولا موالٍ، شاعر وصامت، ريفيّ أذهلته أضواء المدينة وطحنته سجونها، وذات مرَّة أخبرنا إلياس مقدسي إلياس الذي جاء بيروت من الجزيرة السورية هرباً، وكان ضخم الجثة أكولاً وفكهاً، إنه نكاية بخميس شعر الشهير، حيث يلتقي جماعة المجلة ليقرؤوا ويناقشوا استحدث (اثنين شوربة) واكترى خلقيناً كبيراً وكان ينزل إلى السوق لشراء أجنحة الدجاج ليصنع منها شوربة، يفضلها الماغوط على خميس الشعراء وربما بقية أيام أسبوعهم.

هذا هو الماغوط، كما هو، لم يتجمّل شعرياً أو يتزيّن، لم يتفرنج أو يتعصرن أو يتفلسف، لكنه كان من السميّعة النادرين، ما كان حزبياً أو منتمياً إلى عقائد، بل منكسراً يكره الألوان القاتمة ومهجوساً بالصورة، وربما لذلك كان ربيب قهوة أبي شفيق في الربوة يكتب قرب الماء والخضرة نكاية بالمشهد الصحراوي برمته.

سيأتي زمان تجتاح فيه الحرائق التي أشعلها الماغوط صقيع هذا العالم الجليدي الروح، حيث لن يحتاج بعدها إلى صوبيا لتدفئة عظامه الصغيرة.

طفولة بريئة وإرهاب مسن

بقلم سنية صالح

مأساة محمد الماغوط أنه ولد في غرفة مسدلة الستائر اسمها الشرق الأوسط. ومنذ مجموعته الأولى «حزن في ضوء القمر» وهو يحاول إيجاد بعض الكوى، أو توسيع ما بين قضبان النوافذ ليرى العالم ويتنسَّم بعض الحرية.

وذروة هذه المأساة هي في إصراره على تغيير هذا الواقع، وحيداً، لا يملك من أسلحة التغيير إلا الشعر. فبقدر ما تكون الكلمة في الحلم طريقاً إلى الحرية نجدها في الواقع طريقاً إلى السجن. ولأنها كانت دائماً إحدى أبرز ضحايا الاضطرابات السياسية في الوطن العربي، فقد كان هذا الشاعر يرتعد هلعاً إثر كل انقلاب مرَّ على الوطن، وفي أحدها خرجتُ أبحث عنه، كان في ضائقة قد تجره إلى السجن أو ما هو أمرّ منه، وساعدني انتقاله إلى غرفة جديدة في إخفائه عن الأنظار، غرفة صغيرة ذات سقف منخفض حشرت حشراً في خاصرة أحد المباني بحيث كان على من يعبُر عتبتها أن ينحني وكأنه يعبُر بوابة ذلك الزمن.

سرير قديم، ملاءات صفراء، كنبة زرقاء طويلة سرعان ما هبط مقعدها، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم. في هذا المناخ عاش محمد الماغوط أشهراً عديدة.

لنفترض أن الشرق العربي بقعة سوداء على خريطة الماضي والحاضر، فما يكون لون المستقبل؟ ولنبحث بعد ذلك عن مصير الشعر والشعراء من خلال ذلك الظلام الدامس. وإذا ما استعملنا ضوء الذاكرة وجدنا أن محمد الماغوط في وجه من الوجوه جزء من المستقبل، لذا كان لا بد من حمايته من غباء الحاضر. ألا يكون مستقبل شعرنا رماداً لو تركنا الشعراء للسلطة؟

ولأن هذا الشاعر محترق بنيران الماضي والحاضر، لجأ إلى نيران المستقبل وهو جزء منها بحثاً عن وجود آخر وكينونة جديدة. بدت الأيام الأولى كاللعبة البطولية لنا نحن الاثنين. ولكن لما شحب لونه ومال إلى الاصفرار المرضي، وبدأ مزاجه يحتد بدت لي خطورة اللعبة. كان همي الكبير أن يتلاشى الإعصار دون أن يخنق غباره «النسر».

كنت أنقل له الطعام والصحف والزهور خفية. كنا نعتز بانتمائنا للحب والشعر كعالم بديل متعال على ما يحيط بنا. كان يقرأ مدفوعاً برغبة جنونية. وكنت أركض في البرد القارس والشمس المحرقة لأشبع له هذه الرغبة، فلا ألبث أن أرى أكثر الكتب أهمية وأغلاها ثمناً ممزقة أو مبعثرة فوق الأرض مبقعة بالقهوة حيث ألتقطها وأغسلها، ثم أرصفها على حافة النافذة حتى تجف. كان يشعل نيرانه الخاصة في روائع أدبية بينما كانت الهتافات في الخارج تأخذ من بعيد شكلاً معادياً.

وقبل ذلك كان محمد الماغوط غريباً ووحيداً في بيروت. وعندما قدمه أدونيس في أحد اجتماعات مجلة «شعر» المكتظة بالوافدين، وقرأ له بعض نتاجه الجديد الغريب بصوت رخيم دون أن يعلن عن اسمه، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير؟.. رامبو؟..) لكن أدونيس لم يلبث أن أشار إلى شاب مجهول، غير أنيق، أشعث الشعر وقال: «هو الشاعر..» لا شك أن تلك المفاجأة قد أدهشتهم وانقلب فضولهم إلى تمتمات خفيضة. أما هو، وكنت أراقبه بصمت، فقد ارتبك واشتد لمعان عينيه. بلغة هذه التفاصيل وفي هذا الضوء الشخصي نقرأ غربة محمد الماغوط. ومع الأيام لم يخرج من عزلته، بل غيَّر موقعها من عزلة الغريب إلى عزلة الرافض.

من يدرس حياة هذا الشاعر يرى أن فترات الخصب عنده تتواقت مع الأزمات. «فالعصفور الأحدب» وأعمال أخرى ما زالت مخبأة في الأدراج، وقسم كبير من «الفرح ليس مهنتي» جاءت نتيجة انفجار بشري داخلي عنيف حدث

في أواخر ذلك الشتاء. في هذه الحميًّا أخذ يرى علائق الأشياء بعضها بالبعض الآخر. وإن هذه الارتباطات قد تنقلب إلى علائق خطرة فيما إذا تضخمت من طرف واحد تاركة الطرف الآخر يرتجف دون حول أو قوة.

ومحمد الماغوط يبحث عن الحماية منذ صغره. لكن كلما التجأ إلى ركن رآه خانقاً كالسجن أو واهياً كالورق. أراد أن يدخل كون الشعر حيث لا سلطة إلا للمتفوقين. والبيئة المضطربة المتقلبة التي عاش في مناخها، كانت تقف كالسوط في وجهه لترده باستمرار إلى الداخل فيعتصم بمخيلته. في تلك المؤامرة الكبيرة التي حاكتها البيئة ضده عظمت براءته وقوي صفاؤه. وقد أعطته تلك الإقامة السرية فرصة كبيرة للتأمل الذهني. وتحت تلك العدسات كان الوجود الإنساني يدخل سلسلة من التحولات. سكب أحماضه المأساوية على الفوضى البشرية، فبدا الوجود الواحد يحمل في أعماقه وجودات لا حصر لها. وهذا ما دفعه لأن يطرق ألواناً أخرى غير الشعر.

في الشعر يمتطي حلمه ويغيب. ليس بمعنى التخلي الشعوري عن واقعه، وإنما بمعنى الطموح الملح لخلق وجود بديل عنه. وجود آخر يهيم معه في سفره. غرفة الشعر غرفة لينة، واسعة، فضفاضة. تنتقل كلما أشار إليها الشاعر. أما الآن فلا مفر له وهو داخل تلك الجدران المتسخة من مواجهة الواقع. لذا انعكست أوضاعه على أبطال «العصفور الأحدب» سجنهم، خلقهم مشوهين وبأمزجة حادة، متقلبة وشائكة. المسافة في المسرحية لا تنقلهم نحو أحلامهم أو نحو الأفضل وإنما تحاصرهم. وعندما امتلكوا الحرية تغيَّرت مرتفعاتهم الإنسانية. دخلوا في علائق جديدة. شكَّلوا مرة أخرى لعبة الحاكم والمحكوم التي ما استطاعوا أن يذهبوا خارج حدودها بالرغم من الحريات التي امتلكوها فيما بعد. في «العصفور الأحدب» لم يلتق محمد الماغوط بجمهوره بمعنى المواجهة. التقى به في حالة الجذب والقيادة. ولأن الزمن بينه وبين الآخرين كان شاسعاً أُنكرت كعمل مسرحي وسمِّيت قصيدة.

في الحقيقة كان في «العصفور الأحدب» قائداً يسير خلفه جيش مهترئ، منكوب أرمد. لذا ارتدَّ القائد في «المهرج» وفضح تلك المخازي.

يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل. دخل ساحة العراك حاملاً في مخيلته ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة النثر كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث. كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع. والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري. وقد لعبت بدائيته دوراً هاماً في خلق هذا النوع من الشعر، إذ إن موهبته التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي. وهكذا نجت عفويته من التحجر والجمود. وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة في هذا العصر.

نعم تقريباً هذا هو

بقلم محمد علي شمس الدين

أخيراً مات الماغوط

وأحسب أنه سيحل في جسد طائر

وبدأت أفكر: ما هو؟ وأين؟

❖ الحمامة؟

- كلا ، الماغوط ليس في بياض الحمامة ووداعتها.

❖ الغراب؟

- ومن أين له ريش أسود كريش الغراب ونعيب لا ينقطع على الأموات؟

❖ النسر؟

- كلا الماغوط وإن كان له عين النسر ومنقاره، إلا أنه لا يحطّ على الجيف.

❖ العصفور؟.. الأحدب؟

- كلا. الماغوط ليس عصفوراً يصطاده الصيادون المتجولون، ولا هو بأحدب فيكون فرجة.

❖ الهدهد؟

- كلا فالماغوط ما كان رسولاً ينتقل من بلاط لآخر.

❖ الطاووس؟

- آه ما كان أبعده عن ريش الطواويس الملوّن.

❖ الكنار؟

- وما كان صوته يغرّد ويثرثر ويكرّ كالكنار ألف كرَّة في اللحظة.

❖ ببغاء؟

- كلا فهو يستعصي على التلقين.

❖ حجلاً؟

- ويستعصي على الصيّاد.

❖ أهو طائر حبّ ملون؟

- أيضاً كلا، هو أشد قسوة من هذا اللطيف العاطفي.

❖ سنونوة سوداء، إذن..

- لقد كان أضخم من ألف سنونوة سوداء متراكمة بعضها فوق بعض.

❖ رخّ.. عنقاء.. سيمرغ؟

- آه... إنها طيور الخرافة، كلا الماغوط ليس من طيور الخرافة.

❖ أهو طائر الهامة؟

- كلا، وإن رأيته مرَّةً يقف على جدار المقبرة ويصرخ: اسقوني.

❖ هل سقيته؟

- نعم.

لكنه رفض الماء.

❖ إذن.

لا هو الرخ ولا العنقاء.

لا السيمرغ ولا الهامة

لا النسر ولا الحمامة ولا الطاووس ولا الكنار.. فمن هو إذن؟

- حسنٌ

سأروي لكم حكاية رواها رسول عن طاغور قال:

«رأيت في كلكوتا في بيت رامبرانت طاغور العظيم، طائراً مرسوماً، هذا الطائر ليس موجوداً على الأرض ولم يوجد عليها إطلاقاً، إنه ولد وعاش في نفس طاغور، إنه ثمرة خياله، لكن، طبعاً، لو لم يرَ طاغور أبداً طيوراً حقيقيةً، طيوراً على هذه الأرض، لما استطاع أن يخلق صورة طائره البديع».

❖ إذن: الماغوط طائر نفسه.

- نعم، تقريباً، هذا هو.

مختارات من كتاب:

[سأخون وطني هذيان في الرعب والحرية]

تأليف محمد الماغوط

طوق الحمامة

هل يمكن يا حبيبتي أن يقتلني هؤلاء العرب إذا عرفوا في يوم من الأيام أنني لا أحبّ إلاّ الشعر والموسيقا، ولا أتأمل إلاَّ القمر والغيوم الهاربة في كل اتجاه.

أو أنني كلما استمعت إلى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن أخرج حافياً إلى الطرقات وأعانق المارة ودموع الفرح تفيض من عيني.

أو أنني كلما قرأت «المركب السكران» لرامبو، أندفع لألقي بكل ما على مائدتي من طعام، وما في خزانتي من ثياب، وما في جيوبي من نقود وأوراق ثبوتية من النافذة.

نعم فكل شيء ممكن ومحتمل ومتوقع من المحيط إلى الخليج، بل منذ رأيتهم يغدقون الرصاص بلا حساب بين عيني غزال متوسل أدركت أنهم لا يتورعون عن أي شيء.

ولكن من أين لهم أن يعرفوا عني مثل الأهواء، وأنا منذ الخمسينيات لا أحبّ الشعر أو الموسيقا أو السحب أو القمر أو الوطن أو الحرية إلاَّ متلصلصاً آخر الليل، وبعد أن أغلق الأبواب والنوافذ وأتأكد من أن كل المسؤولين العرب من المحيط إلى الخليج قد أووا إلى أسرتهم وأخلدوا للنوم.

ولكن إذا صدف وعرفوا ذلك بطريقة خاصة أو بأخرى فأكِّدي لهم يا حبيبتي بأن كل ما سمعوه عني بهذا الخصوص هو محض افتراء وإشاعات مغرضة، وإنني لا أسمع إلاَّ نشرات الأخبار، ولا أقرأ إلاَّ البلاغات الرسمية. ولا أركض في الشوارع إلاَّ للحاق بمركب التطور.

وإنني أقتنع دائماً بما لا يقنع وأصدّق ما لا يصدّق، ولا أعتبر نفسي أكثر من قدمين على رصيف أو رصيف تحت قدمين.

وإذا ما سألوك: أين أذهب أحياناً عند المساء، فقولي لهم: إنني أعطي

دروساً خصوصية في الوطن العربي في توعية اليائسين والمضللين.

وإذا ما بدوت يائساً في بعض الأحيان، فأكدي لهم أنه يأس إيجابي، وإذا ما أقدمت على الانتحار قريباً فلكي ترتفع روحي المعنوية إلى السماء.

وإنني لا أعتبر أن هناك خطراً على الإنسان العربي والوطن العربي سوى «إسرائيل»، وتلك الحفنة من المثقفين والمنظرين العرب الذين ما فتئوا منذ سنين يحاولون إقناعنا في المقاهي والبارات والندوات والمؤتمرات، بأن معركتنا مع العدو هي معركة حضارية، وكأنهم ينتظرون من قادته وجنرالاته أن يجلسوا صفاً واحداً على كراسيهم الهزازة على الحدود، مقابل صف من الكتّاب والشعراء والفنانين العرب ليبارزوهم قصيدة بقصيدة ومسرحية بمسرحية ولوحة بلوحة وسمفونية بسمفونية وأغنية بأغنية ومسلسلاً بمسلسل.

لا يا حبيبتي، اركبي أول طائرة واجتمعي بكل من يعنيهم هذا الأمر في الوطن العربي، وحذريهم من الوقوع في مثل هذا الشرك، أو مثل هذه الدوامة. فصراعنا مع العدو واضح كل الوضوح في مقولة عبد الناصر الشهيرة:

«ما أُخذ بالقوة لا يستردّ إلاّ بالقوة». والصراع المحتدم الآن بين أكبر دولتين في العالم وأكثرهما غنى بالشعراء والكتّاب والفنانين، ألا وهما روسيا وأمريكا حول سباق التسلح إلاّ الدليل القاطع على صحة هذه المقولة.

ولذلك، فأنا ككل عربي، مستضعف ومستهدف من جميع الجهات، أتابع هذا السباق باهتمام بالغ، وأتابع بالاهتمام نفسه كل ما يطرأ على عالم الأسلحة من تطور في الشكل والمضمون والفعالية. وإن كان لا يزال للدبابة بالنسبة لي ولجيل الخمسينيات برمته مكانة خاصة في نفوسنا، ولا نستطيع بمجرد أن ظهرت أسلحة جديدة أكثر رشاقة وفعالية منها أن ننساها بكل هذه البساطة، فبيننا وبينها عِشْرة عُمْرٍ.

وإذا كانت الدول الأقلّ غنى منا قد وفرت لكل مواطن دبابة واحدة على الأقل. فحريّ بنا نحن العرب، وقد وهبنا الله تلك الثروات والموارد التي لا

تتضب، أن يصبح لكل مواطن عربي في المستقبل لا دبابة واحدة، بل خمس دبابات على الأقل:

واحدة إلى يمينه.

وواحدة إلى يساره.

وواحدة أمامه.

وواحدة وراءه

وواحدة فوقه، وبذلك يرتاح ويريح.

وجبة اليوم وكل يوم

كان المحاضر العربي والمتجول في جامعات أوروبا، والذي نزح عن وطنه منذ سنوات طويلة هرباً من الجوع والإرهاب، يتجوّل ذات مساء في شوارع إحدى المدن الأوروبية، وكل ما حوله من ديمقراطية وعدالة ونظام كان متلألئاً ومتناسقاً مثل شجرة الميلاد.

المظلات فوق الرؤوس، والمارة فوق الأرصفة، والقانون فوق الجميع، يا لها من حضارة مهذبة ودود كالقطة المنزلية الأليفة.

ودخل أحد المطاعم الفاخرة ليتناول عشاءه، فاستقبله «الميتر» بابتسامته المعهودة للغرباء، وقدّم لائحة الطعام ووقف بانتظار طلباته. فقال له الأستاذ الغريب: متعب من القراءة والكتابة فاقرأ لي القائمة إذا أمرت.

قال «الميتر» بحماس: أمرك سيدي. عندنا ويسكي إسكتلندي، وبيرة ألمانية، وخبز كندي، وشوربة سويسرية، وجبنة فرنسية، ولحم أرجنتيني، وكافيار روسي، ومعكرونة إيطالية، وشاي سيلاني، وقهوة برازيلية، أما الأقداح فهي تشيكية، والفوط والمناشف أمريكية.

فشعر الأستاذ بغربة عميقة عن كل ما قرئ له. وانتابه حنين جارف إلى أي شيء يذكره بوطنه وبلاده.

فسأله: أليس عندكم أي شيء عربي؟

فقال «الميتر»: لا. ليس عندنا أي شيء عربي سوى «الخدم»!!

وعاد إلى وطنه في أول طائرة حاملاً خبرته وشهادته وأشواقه ليعوّض ما فات من عمره كل هذه السنين. وما إن وصل إلى الفندق حتى ترك فيه كل شيء، ووضع يديه في جيوبه وراح يتجول حتى آخر الليل في شوارع المدينة التي أحبها وهجرها وهو لا يكاد يشبع من هوائها وأرصفتها وسمائها ونجومها وسط النقاش العالي وراء جدرانها. ودخل أحد المطاعم بعد أن أرهقه التجوال الطويل ليتناول عشاءه، فهبّ إليه «الميتر» بابتسامته المعهودة مرحباً به وبطلباته، فقال

له الأستاذ الغريب:

اقرأ لي ما عندك من أطعمة ومشروبات، فأنا كنت غائباً لسنوات وسنوات عن الوطن. وقد لا أعرف ما تعنيه هذه الأسماء في الوقت الحاضر.

فقال «الميتر»: عندنا عرق لبناني وفول سوداني وكباب حلبي، وملوخية مصرية، وكبسة سعودية، وفريكة عراقية، وكوسكوس تونسي، وكنافة نابلسية، وبطيخ أردني، وقهوة عدنية، والطبخ بجميع أنواعه عربي. وكما ترى المطبخ شرقي والستائر شرقية والراقصة شرقية والأغاني عربية، وكذلك الفرش واللباس عربي. وكذلك أنا وموظفو الاستقبال والطهاة والمحاسبون كلنا عرب بعرب.

فتنفس الأستاذ الصعداء وقال:

يعني ليس عندكم أي شيء أجنبي؟

«الميتر» أبداً يا سيدي، ليس عندنا أي شيء أجنبي ما عدا صاحب المحل.

❖❖❖

وشمر عن ساعد الجدّ والعمل وانخرط في الحياة السياسية حتى شحمة أذنيه. ودخل في حزب وخرج من آخر. وانضم إلى هذه المنظمة، وعارض تلك الكتلة. تغدّى مع المعارضة وتعشى مع الموالاة. عجن اليمين وخبز اليسار. احتك بالأطباء والمحامين والتجار والمقاولين. يستوضح ويستكشف ويستوعب. سابراً غور السياسة العربية قبل كامب دايفيد وبعده. مسترشداً بقرارات القمة الموسعة والمغلقة. آخذاً بالحسبان نقط الخلاف ونقط الالتقاء بين الأنظمة والمعارضة والأنظمة الموالية لهذا المعسكر أو ذاك. ثم افتتح عدداً من المشاريع في مختلف المجالات. ثم افتتح مطعماً ووقف على بابه. وكلما دخل زبون وسأله: هل اللحم والفراريج عندكم مذبوحة على الطريقة الإسلامية؟

يجيبه وهو يقدم له الشوكة والسكين:

ليس عندنا سوى الإنسان العربي مذبوحاً على ألف طريقة وطريقة.

غداً

أيها البحر العظيم

أيها البحر المناضل

أيها البحر الطاغية

مع إطلالة هذا الصيف المحرق، وبعد سنوات وسنوات من الحشمة والتردد والوقار، أتى إليك لاهثاً مهرولاً، دون موعد، ودون مقدمات، ودون مايوه، لأحيطك علماً بأن الملعقة والصحن أصبحا سيف العرب وترسهم في مقارعة العدوان، وأن رغيفهم اليومي صار المستشار السياسي لكل زعيم والناطق الرسمي لكل شعب والأغنية الوطنية على كل لسان.

وتهيم على وجهك في طول البلاد العربية وعرضها تقرع الأبواب وتسأل:

أيها المذيع... لِمَ تقرأ أخباراً لا تعرف مصادرها وأرقاماً لا تثق بصحتها ووعوداً لا تؤمن بجديتها والزبد يتطاير من شفتيك، وكأنك ماض لتوّك إلى المعركة؟

- أريد أن أعيش.

أيها الصحفي المبدع والحامل لواء الصدق والحقيقة إلى ما فوق رأسك كالشعلة الأولمبية، لِمَ تغطّي ندوات لا تؤمن بجدواها وتحلل توصيات لم تقرأها وتعانق ضيوفاً وتلثم خدوداً تتمنى عضّها؟

- أريد أن أعيش.

أيها المعلّم الوقور.. يا مربي الأجيال تلو الأجيال، لِمَ تدرِّس مناهج غير مقتنع بها وتلتزم بتعليمات لا تحترمها وتحيّي أعلامها تَجهل حتى ألوانها؟

- أريد أن أعيش.

أيها الشاعر الملتزم بقضايا الجماهير والمنظومة الاشتراكية بأسرها، يا خليفة مايكوفسكي في الجرأة، وبريخت في وضوح الرؤية، وناظم حكمت في الثبات على المبدأ، كيف تتنقل على مدار السنة ما بين وارسو وبراغ

وبودابست، وفي نهاية العام لا تقيم أمسياتك الشعرية وندواتك الفكرية إلاّ في دول النفط؟

- أريد أن أعيش.

أيها الأب العجوز الملتاع، لِمَ تذرف الدموع وتعصر المناديل في سرّك حزناً وشوقاً لابنك المنسي في غياهب السجون وفي مراكز عملك لا تعترف ببنوته وتستشيط غضباً من كل من يأتي على ذكره أمامك؟

- أريد أن أعيش.

أيها الجدّ، أيتها الأم، أيتها الطفلة، لِمَ تتركين بلادك تحت القنابل، وتجرجرين حقائبك وأطفالك من بلد إلى بلد ومن مطار إلى مطار، تغطِّين دموعك وآثار التعذيب القديمة على جسدك بالمساحيق، وتبالغين في انحسار الثوب على الركبتين أمام حواجز الأمن والتفتيش في المطارات؟

- أريد أن أعيش.

أيها الشرطي، لِمَ تجلد الأبرياء؟

أيها الموظف، لِمَ تبتز الغرباء؟

أيها البريء، لِمَ لا تصرخ في وجه مضطهديك؟

أيها القاضي، لِمَ تصدر أحكاماً لا تؤمن بعدالَتها؟

أيها الممثل، لِمَ تقبل أدواراً تخجل من ذكرها؟

- نريد أن نعيش.

حتى أنطوني كوين صار يمثل ليعيش.

حتى فيروز صارت تغني لتعيش.

حتى نجوى فؤاد صارت تكتب وتنظّر لتعيش.

فيا أيها البحر الهادر العظيم، يا قاهر الإسكندر وهنيبعل ونابليون، يا ملهم هرمان ملفل وبول فاليري وهمنغواي.

يا رمز القوة والعطاء والكبرياء والعنفوان. أفتني في هذه الحال التي وصلنا

إليها؟

فنظر إليّ البحر من خلال صخوره المهترئة وزبده الأبيض العتيق المتسخ، كياقة موظف عجوز، وقال لي والدموع تغطّي أمواجه المنهكة وأصدافه الرثة البالية:

وأنا أيضاً صرت أهدر لأعيش.

أيتها الملعقة أنت عدونا.

أيها الرغيف أنت وثيقة الاستسلام التي تقدّم لنا كل صباح.

أيتها اللقمة الصغيرة، أنت «إسرائيل الكبرى».

نوم الهنا

هبطت الشارع ورأسي يعج بأبواق السيارات وأصوات الباعة وصفير الشرطة، عندما سمعت صوت صديق قديم يناديني: الربيع.. الربيع، لقد أتى منذ شهر ولم يشعر به إنسان. أين يمكنك أن تعثر عليه في مثل هذه الغابة المعدنية النامية، إن المرء العاطفي من أمثالنا أصبح بحاجة لأن يطلق «منادياً» في الشوارع والأسواق ليبحث عنه ويعثر عليه.

فقلت له: من جهتي، متى أتى الربيع ومتى ذهب، لم يعد يعنيني في شيء. إنه بالنسبة إليَّ مثل أي دبلوماسي يزور المنطقة.

فقال: لا. أما أنا فما زلت كما تعرفني: (الربيع بالنسبة لي هو كل شيء).

الشعر والموسيقا والصحافة والعالم أجمع. ما إن يقبل الربيع حتى أشعر بأن كل شيء في أعماقي أخذ ينمو ويتفتح، حتى لأخشى أن تزهر فواتير الماء والكهرباء التي أحملها وتتدلى أغصانها من جيوبي.

إنه يأتي باسطاً ذراعيه الخضراوين على امتداد العالم داعياً إلى الحبّ والقبل والعناق. ولكن النساء في بلدنا مشكلة. تتعرف على إحداهن، فتأخذك الدهشة من جمالها، ويستقيم حاجباك إعجاباً برقتها ونعومتها وتهذيبها وأناقتها. ولكن ما إن تنزع عنها هذه القشور الخارجية، حتى تكتشف أنها لا تحتاج إلاّ إلى طاقية وشوارب وخال، لتكون «أبا صياح» آخر.

تتعرف على واحدة ثانية فتذهلك بثقافتها وزهدها وعزوفها عن كل شيء إلاّ القضايا الوطنية والطبقات الكادحة لا في بلدها فحسب، بل وفي المنطقة كلها. وعندما تسألها، وأين تحبين أن نسهر الليلة؟ تجيبك على الفور: في الميريديان طبعاً! هل تعرف ماذا يعني الميريديان لواحد دخله كدخلنا. أجبني أرجوك.

فقلت له: لا أعرفه. مرة واحدة فقط قصدته للاطلاع من كثرة ما تحدث

الناس عنه، ولكن ما إن جلست على مائدة الطعام وقرأت لائحة الأسعار، حتى جفلت كأن كلباً عوى في وجهي، وهربت ركضاً إلى الشارع والفوطة على صدري.

فقال صديقي: تماماً هذا ما كنت أعنيه. المهم.. تتعرف على واحدة ثالثة، لا تحبّ المطاعم الفاخرة والسهرات الاستعراضية، ولكنها تحبّ الثياب الفاخرة والتبرج والزينة الطنانة للفت النظر، بحيث لا تحب أن تذهب ولو إلى باب الدار، إلاَّ إذا كانت كلها تخشخش بالحلي وبالأساور والأجراس مثل ملك نيبال في مؤتمر كولمبو.

وإذا وقعت بعد تطواف طويل على واحدة متواضعة، لا يهمها سهر أو ثياب أو طعام أو حلي. أو غير ذلك من بهارج الدنيا، وكل ما تريده هو الزواج والسترة تحت سقف وبضعة جدران، تفاجئك بطلب «مقدَّم ومؤخَّر» يشتري الميرديان نفسه.

بصراحة أنا أفهم على الخرسان والطرشان والمكفوفين، ولا أفهم على نساء هذا البلد.. والمشكلة، أنني شاب أمّور بالصحة والعافية والرغبات، ولا أضمن أن تمرّ الأمور معي بسلام حتى نهاية فصل الربيع، وكل شيء يدعو إلى البهجة والانشراح والحبّ. إذْ كلما أويت إلى فراشي وحيداً في آخر الليل، وسمعت أغاني فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، تنفر من عيني الدموع شوقاً وحنيناً إلى الحبّ. فماذا تنصحني أرجوك؟

فقلت له: أنصحك بحبّ السلطة والمسؤولين.

فقال مستغرباً: ولكنني أحبهم ولا أكرههم. إنني أريد حباً من نوع آخر... حباً عاطفياً فيه آهات وتنهدات.

فقلت: تستطيع أن تقف أمام البنك المركزي وتتنهَّد طول النهار.

فقال: وفي الليل ماذا أعمل؟

فقلت له: تتمدد على الرصيف وتعانق مبنى مجلس الشعب.

محمد الماغوط

مختارات شعرية

حزن في ضوء القمر

أيها الربيعُ المقبل من عينيها
أيها الكناري المسافرُ في ضوء القمر
خذني إليها
قصيدةَ غرامٍ أو طعنة خنجر
فأنا متشرّد وجريح
أحبُّ المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم أستيقظ
لأفكّر بركبة امرأة شهيةٍ رأيتها ذات يوم
لأعاقرَ الخمرة وأقرضَ الشعر
قل لحبيبتي ليلى
ذات الفم السكران والقدمين الحريريتين
إنني مريضٌ ومشتاق إليها
إنني ألمح آثار أقدام على قلبي
دمشقُ يا عربةَ السبايا الوردية
وأنا راقدٌ في غرفتي
أكتبُ وأحلم وأرنو إلى المارة
من قلب السماء العالية
أسمع وجيب لحمك العاري
عشرون عاماً ونحن ندقُّ أبوابك الصلدة
والمطر يتساقط على ثيابنا وأطفالنا
ووجوهنا المختنقة بالسعال الجارح

تبدو حزينةً كالوداع صفراءَ كالسلّ

ورياحُ البراري الموحشة

تنقلُ نواحنا

إلى الأزقة وباعةِ الخبزِ والجواسيس

ونحن نعدو كالخيول الوحشية على صفحات التاريخ

نبكي ونرتجف

وخلفَ أقدامنا المعقوفة

تمضي الرياحُ والسنابلُ البرتقالية...

وافترقنا

وفي عينيك الباردتين

تنوحُ عاصفةٌ من النجوم المهرولة

أيتها العشيقه المتغضنَّة

ذات الجسد المغطَّى بالسعال والجواهر

أنتِ لي

هذا الحنين لك يا حقودة!

قبل الرحيل بلحظات

ضاجعتُ امرأة وكتبت قصيدة

وتحت شمس الظهيرة الصفراء

كنت أسندُ رأسي على ضلْفاتِ النوافذ

وأترك الدمعة

تبرق كالصباح كامرأة عارية

فأنا على علاقة قديمة بالحزن والعبودية

وقربَ الغيوم الصامتة البعيدة

كانت تلوح لي مئات الصدور العارية القذرة

تندفع في نهر من الشوك

وسحابةٌ من العيون الزرق الحزينة

تحدقُ بي

بالتاريخ الرابض على شفتي

يا نظرات الحز الطويلة

يا بقع الدم الصغيرة أفيقي

إنني أراكِ هنا

على البيارقَ المنكّسة

وفي ثنياتِ الثياب الحريرية

وأنا أسير كالرعد الأشقر في الزحام

تحت سمائك الصافية

أمضي باكياً يا وطني

أين السفنُ المعبأةُ بالتبغ والسيوف

والجارية التي فتحتْ مملكةً بعينيها النجلاوين

كامرأتين دافئتين

كليلة طويلةٍ على صدر أنثى أنت يا وطني

إنني هنا شبحٌ غريبٌ مجهول

تحت أظافري العطرية

يقبع مجدك الطاعن في السن

في عيون الأطفال

تسري دقاتُ قلبك الخائر

لن تلتقي عيوننا بعد الآن

لقد أنشدتُكَ ما فيه الكفاية

سأطل عليك كالقرنفلة الحمراء البعيدة

وكالسحابةِ التي لا وطن لها

وداعاً أيتها الصفحات أيُّها الليل

أيتها الشبابيكُ الأرجوانية

انصبوا مشنقتي عاليةً عند الغروب

عندما يكون قلبي هادئاً كالحمامة..

جميلاً كوردة زرقاء على رابية،

أودُّ أن أموتَ ملطخاً

وعيناي مليئتان بالدموع

لترتفعَ إلى الأعناق ولو مرة في العمر

في طفولتي،

كنت أحلم بجلباب مخطط بالذهب

وجواد ينهب في الكروم والتلال الحجرية

أما الآن

وأنا أتسكّع تحت نورِ المصابيح

أنتقل كالعواهرِ من شارع إلى شارع

أشتهي جريمةً واسعة

وسفينةً بيضاء، تقلنّي بين نهديها المالحين

إلى بلاد بعيدة،

حيث في كل خطوةٍ حانةٌ وشجرة خضراء،

وفتاةٌ خلاسية،

تسهرُ وحيدةً مع نهدها العطشان

أغنية لباب توما

حلوة عيونُ النساء في باب توما

حلوة حلوة

وهي ترنو حزينةً إلى الليل والخبز والسكارى

وجميلةٌ تلك الأكتافُ الغجرية على الأسرّة..

لتمنحني البكاء والشهوة يا أمي

ليتني حصاةٌ ملونةٌ على الرصيف

أو أغنية طويلةٌ في الزقاق

هناك في تجويفٍ من الوحل الأملس

يذكّرني بالجوع والشفاه المشردة،

حيث الأطفالُ الصغار

يتدفقون كالملاريا

أمام الله والشوارع الدامسة

ليتني وردةٌ جورية في حديقة ما

يقطفني شاعر كئيب في أواخر النهار

أو حانةٌ من الخشب الأحمر

يرتادُها المطرُ والغرباء

من شبابيكي الملطّخة بالخمر والذباب

تخرج الضوضاءُ الكسولة

إلى زقاقنا الذي ينتجُ الكآبة والعيون الخضر

حيث الأقدامُ الهزيلة

ترتع دونما غاية في الظلام

أشتهي أن أكون صفصافةً خضراء قرب الكنيسة

أو صليباً من الذهب على صدر عذراء،

تقلي السمك لحبيبها العائد من المقهى

وفي عينيها الجميلتين

ترفرفُ حمامتان من بنفسج

أشتهي أن أقبّل طفلاً صغيراً في باب توما

ومن شفتيه الورديتين،

تنبعث رائحةُ الذي أرضَعَه،

فأنا ما زلت وحيداً وقاسياً

أنا غريب يا أمي.

في المبغى

من قديم الزمان،
وأنا أرضع التبغ والعار
أحبُّ الخمرَ والشتائم
والشفاه التي كانت تقبّلْ ماري
ماري التي كانت اسمها أمي.
حارة كالجرب
سمراء كيوم طويل غائم
أحبُّه أكره لحمها المشبع بالهمجية والعطر
أربض عند عتبتها كالغلام
وفي صدري رغبة مزمنة
تشتهي ماري كجثة زرقاء
تختلج بالحلي والذكريات.
من قديم الزمان.. أنا من الشرق..
من تلك السهول المغطاة بالشمس والمقابر
أحبّ التسكعَ والثيابَ الجميلة
ويدي تتلمس عنق المرأة الباردة
وبين أهدابها العمياء
ألمح دموعاً قديمة تذكرني بالمطر
والعصافير الميتة في الربيع
كنت أرى قارة من الصخر
تشهق بالألم والحرير

والأذرع الهائجة في الشوارع.

فأنتم يا ذوي الأحذية اللامعة

والسلاميات المحشوة بالإثم والخواتم

ماذا تعرفون عن وجه ماري الصغيرة الحلوة

ذات الوجه الضاحك كقمرٍ من الياسمين

ماذا تعرفون عن لحمها الذي يتجشَّأ العطر والأصابع

حيث الشفاه المقرورةُ الخائفة

تنهمر عليها كالجراد

وهي ترنو إلى الطرقات الحالكة

بعد منتصف الليل

والنوافذ المفروشة بالزجاج والدم

قابعة كالحثالة في أحشاء الشرق

تأكل وتنام

وتموت قبلةً إثر قبلة

تحلم بملاءة سوداء

ونزهةٍ في شارع طويل

ممتلئٍ بالضجَّة والدفاتر والأطفال

وثغر الطافح بالسأم

يكدح طيلة الليل لتأكل ماري

الأفرانُ مطفأة في آسيا

والطيورُ الجميلة البيضاء

ترحل دونما عودة في البراري القاحلة.

المسافر

بلا أمل..

وبقلبي الذي يخفقُ كوردةٍ حمراءَ صغيرة

سأودِّع أشيائي الحزينةَ في ليلةٍ ما..

بقع الحبر

وآثار الخمرة الباردة على المشمّع اللزج

وصمت الشهور الطويلة

والناموس الذي يمصُّ دمي

هي أشيائي الحزينة

سأرحلُ عنها بعيداً.. بعيداً

وراء المدينة الغارقةِ في مجاري السلّ والدخان

بعيداً عن المرأة العاهرة

التي تغسل ثيابي بماء النهر

وآلاف العيون في الظلمة

تحدق في ساقيها الهزيلين،

وسعالها البارد، يأتي ذليلاً يائساً

عبر النافذةِ المحطَّمة

والزقاقُ المتلوي كحبلٍ من جثث العبيد

سأرحلُ عنهم جميعاً بلا رأفة

وفي أعماقي أحمل لك ثورةً طاغيةً يا أبي

فيها شعبٌ يناضل بالتراب، والحجارة والظمأ

وعدة مرايا كئيبة

تعكس ليلاً طويلاً، وشفاهاً قارسةً عمياء

تأكل الحصى والتبن والموت

منذ مدة طويلة لم أرَ نجمةً تضيء

ولا يمامةً شقراء تصدحُ في الوادي

لم أعدْ أشربُ الشاي قرب المعصرة

وعصافيرُ الجبال العذراء،

ترنو إلى حبيبتي ليلى

وتشتهي ثغرها العميقَ كالبحر

لم أعد أجلس القرفصاء في الأزقة

حيث التسكع

والغرام اليائس أمام العتبات.

فأرسل لي قرميدةً حمراء من سطوحنا

وخصلةَ شعرٍ من أمي

التي تطبخ لك الحساء في ضوء القمر

حيث الصهيلُ الحزين

وأعراسُ الغجر في ليالي الحصاد

بعْ أقراط أختي الصغيرة

وأرسل لي نقوداً يا أبي

لأشتري محبرة

وفتاة ألهث في حضنها كالطفل

لأحدثك عن الهجير والتثاؤب وأفخاذ النساء

عن المياهِ الراكدةِ كالبول وراء الجدران

والنهود التي يؤكل شهدُها في الظلام

فأنا أسهرُ كثيراً يا أبي

أنا لا أنام..

حياتي، سوادٌ وعبوديةٌ وانتظار.

فأعطني طفولتي..

وضحكاتي القديمة على شجرةِ الكرز

وصندلي المعلّق في عريشة العنب،

لأعطيك دموعي وحبيبتي وأشعاري

لأسافرَ يا أبي.

الشتاء الضائع

بيتُنا الذي كان يقطنُ على صفحةِ النهر
ومن سقفه المتداعي
يخطُرُ الأصيل والزنبقُ الأحمر
هجرْتُه يا ليلى
وتركتُ طفولتي القصيرة
تذبلُ في الطرقات الخاوية
كسحابةٍ من الوردِ والغبار
غداً يتساقط الشتاءُ في قلبي
وتقفز المتنزهاتُ من الأسمالِ والضفائر الذهبية
وأجهشُ ببكاءٍ حزين على وسادتي
وأنا أرقبُ البهجة الحبيبة
تغادرُ أشعاري إلى الأبد
والضبابُ المتعفّنُ على شاطئ البحر
يتمدَّدُ في عيني كسيلٍ من الأظافرِ الرمادية
حيثُ الرياحُ الآسنة
تزأرُ أمام المقاهي
والأذرعُ الطويلةُ، تلوحُ خاويةً على الجانبين
يطيبُ لي كثيراً يا حبيبة، أن أجذبَ ثديك بعنف
أن أفقد كآبتي أمام ثغرك العسلي
فأنا جارحٌ يا ليلى

منذ بدءِ الخليقةِ وأنا عاطلٌ عن العمل

أدخِّنُ كثيراً

وأشتهي أقربَ النساء إليّ

ولكم طردوني من حاراتِ كثيرة

أنا وأشعاري وقمصاني الفاقعة اللون

غداً يحنُّ إليّ الأقحوان

والمطرُ المتراكمُ بين الصخور

والصنوبرةُ التي في دارنا

ستفتقدني الغرافات المسنّة

وهي تئنُّ في الصباح الباكر

حيث القطعان الذاهبةُ إلى المروج والتلال

تحنُّ إلى عينيّ الزرقاوين

فأنا رجلٌ طويلُ القامة

وفي خطواتي المفعمةِ بالبؤس والشاعرية

تكمن أجيالٌ ساقطةٌ بلهاء

مكتنزةً بالنعاسِ والخيبة والتوتر

فاعطوني كفايتي من النبيذ والفوضى

وحرية التلصصِ من شقوق الأبواب

وبنيّةً جميلة

تقدم لي الوردة والقهوة عند الصباح

لأركضَ كالبنفسجة الصغيرة بين السطور

لأطلقَ نداءاتِ العبيد

من حناجر الفولاذ.

الرجل الميت

أيتها الجسورُ المحطَّمة في قلبي
أيتها الوحولُ الصافيةُ كعيون الأطفال
كنا ثلاثة
نخترق المدينةَ كالسرطان
نجلسُ بين الحقول، ونسعلُ أمام البواخر
لا وطنَ لنا ولا أجراس
لا مزارعَ ولا سياط
نبحثُ عن جريمةٍ وامرأة تحت نور النجوم
وأقدامُنا تخبُّ في الرمال
تفتحُ مجاريرَ من الدم
نحن الشبيبة الساقطة
والرماح المكسورة خارج الوطن
من يعطينا امرأةً بثياب قطنية حمراء؟
من يعطينا شعباً أبكمَ نضربه على قفاه كالبهائم؟
لنسمعَ تمزُّق القمصان الجميلة
وسقسقةَ الهشيم فوق البحر
لنسمعَ هذا الدويّ الهائل
لستةِ أقدام جريحة على الرصيف
حيث مئةُ عام تربضُ على شوارينا المدمَّاة
مئة عام والمطر الحزين يحشرجُ بين أقدامنا.

بلا سيوفٍ ولا أمهات

وقفنا تحت نور الكهرباء

نتثاءبُ ونبكي

ونقذف لفائفنا الطويلةَ باتجاه النجوم

نتحدثُ عن الحزن والشهوة

وخطواتِ الأسرى في عنقِ فيروز

وغيوم الوطن الجاحظة

تلتفتُ إلينا من الأعالي وتمضي..

يا ربّ

أيها القمرُ المنهوك القوى

أيها الإلهُ المسافرُ كنهدٍ قديم

يقولون إنك في كل مكان

على عتبة المبغى، وفي صراخِ الخيول

بين الأنهارِ الجميلة

وتحت ورقِ الصفصاف الحزين

كن معنا في هذه العيون المهشمة

والأصابع الجرباء

أعطنا امرأة شهية في ضوء القمر

لنبكي

لنسمعَ رحيل الأظافر وأنين الجبال

لنسمعَ صليل البنادق من ثدي امرأة.

ما من أمةٍ في التاريخ

لها هذه العجيزةُ الضاحكة

والعيونُ المليئةُ بالأجراس.

لعشرين ساقطة سمراء، نحملُ القمصان واللفائف

نطلّ من فرجات الأبواب

ونرسل عيوننا الدامعة نحو موائد القتلى

لعشرين غرفة مضاءةٍ بين التلال

نتكئُ على المدافع

ونضع ذقوننا اللامعة فوق الغيوم.

ابتسمْ أيها الرجلُ الميت

أيها الغرابُ الأخضرُ العينين

بلادُك الجميلةُ ترحل

مجدك الكاذبُ ينطفئُ كنيران التبن

افتح ساقيك الجميلتين.. لنمضي..

لنسرع إلى قبورنا وأطفالنا

المجدُ كلماتٌ من الوحل

والخبزُ طفلةٌ عاريةٌ بين الرياح.

◆◆◆

يا قلبي الجريح الخائن

أنا مزمارُ الشتاء البارد

ووردةُ العار الكبيرة

تحت ورق السنديان الحزين

وقفتُ أدخن في الظلام

وفي أظافري تبكي نواقيس الغبار

كنت أتدفقُ وأتلوى

كحبلٍ من الثريات المضيئة الجائعة

وأنا أسير وحيداً باتجاه البحر

ذلك الطفل الأزرق الجبان

مستعداً لارتكاب جريمة قتل

كي أرى أهلي جميعاً وأتحسسهم بيدي

أن أتسكعَ ليلةً واحدة

في شوارعِ دمشق الحبيبة.

♦♦♦

يا قلبي الجريح الخائن

في أظافري تبكي نواقيسُ الغبار

هنا أريد أن أضعَ بندقيتي وحذائي

هنا أريد أن أحرقَ هشيم الحبر والضحكات

أوروبا القانية تنزفُ دماً على سريري

تهرولُ في أحشائي كنسرٍ من الصقيع

لن نرى شوارع الوطن بعد اليوم

البواخرُ التي أحبها تبصقُ دماً وحضارات

البواخر التي أحبها تجذبُ سلاسلها وتمضي

كلبوةٍ تجلد في ضوء القمر

يا قلبي الجريح الخائن

ليس لنا إلا الخبز والأشعار والليل

وأنت يا آسيا الجريحة

أيتها الوردةُ اليابسةُ في قلبي

الخبز وحده يكفي

القمح الذهبيُّ التائهُ يملأ ثدييك رصاصاً وخمراً.

القتل

ضع قدمك الحجريةَ على قلبي يا سيدي
الجريمةُ تضرب باب القفص
والخوفُ يصدحُ كالكروان
ها هي عربةُ الطاغية تدفعها الرياح
وها نحن نتقدم
كالسيف الذي يخترقُ الجمجمة.

♦♦♦

أيها الجرادُ المتناسلُ على رخام القصور والكنائس
أيتها السهولُ المنحدرة كمؤخرة الفرس
المأساةُ تنحني كالراهبة
والصولجان المذهَّبُ ينكسر بين الأفخاذ.
كانوا يكدحون طيلة الليل
المومساتُ وذوو الأحذية المدبَّبة
يعطرون شعورهم
ينتظرون القطار العائد من الحرب.
قطار هائل وطويل
كنهر من الزنوج
يئن في أحشاءِ الصقيع المتراكم
على جثث القياصرة والموسيقيين
ينقل في ذيله سوقاً كاملاً
من الوحل والثياب المهلهلة
ذلك الوحل الذي يغمرُ الزنزانات

والمساجد الكئيبة في الشمال

الطائرُ الذي يغني يُزجُّ في المطابخ

الساقيةُ التي تضحك بغزارة

يُربَّى فيها الدود

تتكاثرُ فيها الجراثيم

كان الدودُ يغمر المستنقعات والمدارس

خيطان رفيعة من التراب والدم

تتسلَّق منصَّاتِ العبودية المستديرة

تأكل الشاي وربطات العنق، وحديد المزاليج

من كل مكان، الدود ينهمرُ ويتلوى كالعجين،

القمحُ ميت بين الجبال

وفي التوابيت المستعملة كثيراً

في المواخير وساحات الإعدام

يعبئون شحنة من الأظافر المضيئة إلى الشرق

وفي السهول التي تنبع بالحنطة والديدان...

حيث الموتى يلقون على المزابل

كانت عجلاتُ القطار أكثر حنيناً إلى الشرق،

يلهث ويدوي ذلك العريسُ المتقدّم في السن

ويخبط بذيله كالتمساح على وجه آسيا.

كانوا يعدِّون لها منديلاً قانياً

في أماكن التعذيب

ومروحةً سميكةً من قشور اللحم في سيبيريا،

كثير من الشعراء

يشتهون الحبر في سيبيريا.

البندقيةُ سريعةٌ كالجفن

والزناد الوحشي هادئٌ أمام العينين الخضراوين

ها نحن نندفع كالذباب المسنّن

نلوِّحُ بمعاطفنا وأقدامنا

حيث المدخنةُ تتوارى في الهجير

وأسنان القطار محطّمة في الخلاص الموحش

الطفلةُ الجميلة تبتهل

والأسير مطاردٌ على الصخر.

أنامُ وعلى وسادتي وردتان من الحبر

الخريفُ يتدحرجُ كالقارب الذهبي

والساعات المرعبة تلتهبُ بين العظام

يدي مغلقة على الدم

وطبقةً كثيفة من النواح الكئيب

تهدر بين الأجساد المتلاصقة كالرمل

مستاءةً من النداء المتعفّن في شفاه غليظة

تثير الغثيان

حيث تصطّكُ العيونُ والأرجل

وأنين متواصل في مجاري المياه

شفاه غليظة ورجال قساة

انحدروا من أكماتِ العنف والحرمان

ليلعقوا ماء الحياة عن وجوهنا

كنا رجالاً بلا شرفٍ ولا مال

وقطعاناً بربرية تثغو مكرهة عبر المآسي

هكذا تحكي الشفاه الغليظةُ يا ليلى

أنت لا تعرفينها
ولم تشمي رائحتها القويةَ السافلة
سأحدثك عنها ببساطة وصدق وارتياح
ولكن
ألا تكوني خائنة يا عطورَ قلبي المسكين
فالحبر يلتهب والوصمةُ ترفرف على الجلد

♦♦♦

غرفتي مطفأةٌ بين الجبال
القطيع يرفع قوائمه الحافية
والأوراق المبعثرة تنتظر عند ليبها
وندلفُ وراء بعضنا إلى المغسلة
كجذوع الأشجار يجب أن نكون
جواميس نتأملُ أظلافها حتى يفرقع السوط
نمشي ونحن نيام
غفاة على البلاط المكسو بالبصاق والمحارم
نرقد على بطوننا المضروبة بأسلاك الحديد
ونشرب الشاي القاحلَ في هدوءٍ لعين
وتمضي ذبابة الوجود الشقراء
تخفقُ على طرف الخنجرة
كنا كنزاً عظيماً
ومناهلَ سخية بالدهن والبغضاء
نتشاجرُ في المراحيض
ونتعانق كالعشاق.
أعطني فمك الصغير يا ليلى

أعطني الحلمةَ والمدية إننا نجثو
نتحدثُ عن أشياء تافهة
وأخرى عظيمة كالسلاسل التي تصرٌّ وراء الأبواب
موصدة.. موصدة هذه الأبواب الخضراء
المنتعشة بالقذارة
مكروهة صلدة
من غماماتِ الشوق الناحبة أمامها
نتثاءبُ ونتقيأُ وننظر كالدجاجِ إلى الأفق
لقد مات الحنان
وذابت الشفقة من بؤبؤ الوحشِ الإنساني
القابعَ وراء الزريبة
يأكل ويأكل
وعلى الشفة السفلى المتدلية آثار مأساة تلوح
أمي وأبي والبكاء الخانق
آه ما أتعسني إلى الجحيم أيها الوطنُ الساكن في قلبي
منذ أجيال لم أرَ زهرة.
الليالي طويلة والشتاءُ كالجمر
يومٌ واحد
وهزيمةٌ واحدة للشعب الأصفر الهزيل
إنني ألمس لحيتي المدبَّبة
أحلم برائحة الأرض وسطوح المنازل
بفتاةٍ مراهقةٍ ألعقها بلساني
السماء زرقاء
واليد البرونزيةُ تلمس صفحة القلب

الشفاهُ الغليظةُ تفرز الأسماء الدموية

وأنا مستلقٍ على قفاي

لا أحدَ يزورني أثرثرُ كالأرملة

عن الحرب، والأفلام الخليعة، ونكران الذات

والخفير المطهَّم، يتأمل قدميَّ الحافيتين

وقفتُ وراء الأسوار يا ليلى

أتصاعد وأرتمي كأنني أجلس على نابض

وقلبي مفعمٌ بالضباب

ورائحة الأطفال الموتى

إن أعلامنا ما زالت تحترقُ في الشوارع

متهدلة في الساحات الضارية إلى الحمرة

كنت أتساقط وأحلم بعينيك الجميلتين

بقمصانك الوردية

والهجير الضائع في قبلاتكِ الأخيرة

مرحباً بكِ، بفمك الغامقِ كالجرح

بالشامة الحزينة على فتحةِ الصدر

أنا عبدٌ لك يا حبيبة

ترى كيف يبدو المطر في الحدائق؟

ابتعدي كالنسيم يا ليلى

يجب ألا تلتقي العيون

هرم الانحطاطِ نحن نرفعه

نحن نشكُّ راية الظلم في حلقاتِ السلاسل

بالله لا تعودي

شيءٌ يمزِّقني أن أراهم يلمسونك بغلظة

أن يشتهوك يا ليلى

سألكمُ الحديد والجباه الدنيئة

سأصرخُ كالطفل وأصيح كالبغي

عيناكِ لي منذ الطفولة تأسرانني حتى الموت.

♦♦♦

انطفأَ الحلم، والصقرُ مطاردٌ في غابته

لا شيء يذكر

إننا نبتسمُ وأهدابنا قاتمةٌ كالفحم

هجعت أبكي أتوسَّل للأرض الميتة بخشوع

أوّاه لم زرتني يا ليلى؟

وأنت أشدُّ فتنةً من نجمة الشمال

وأحلى رواءً من عناقيد العسل

لا تكتبي شيئاً سأموتُ بعد أيام

القلبُ يخفق كالمحرمة

ولا تزال الشمس تشرق، هكذا تتخيل

إننا لا نراها

وعلى حافة الباب الخارجي

ساقيةٌ من العشب الصغير الأخضر

تستحمُّ في الضوء

وثمة أحذية براقة تتنقَّل على رؤوس الأزهار

كانت لامعة وتحمل معها رائحة الشارع، ودور السينما

كانت تدوس بحرية

ووراء الباب الثالث

يقومُ جدارٌ من الوهم والدموع

جدار تنزلق من خلاله رائحة الشرق
الشرق الذليل الضاوي في المستنقعات
آه، إنَّ رائحتنا كريهة
إننا من الشرق
من ذلك الفؤاد الضعيف البارد
إننا في قيلولةٍ مفزعةٍ يا ليلى
لقد كرهتُ العالم دفعة واحدة
هذا النسيجَ الحشريَّ الفتاك
وأنا أسير أمام الرؤوس المطرقة منذ شهور
والعيون المبلَّلة منذ بدء التاريخ
ماذا تثير بي؟ لا شيء
إنني رجلٌ من الصفيح
أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقة
كالصهيل المتمرد على الهضبة.
هضبة صفراء ميتة تشرق بالألم والفولاذ
فيها أكثرُ من ألف خفقة جنونية
تنتحبُ على العتبات والنوافذ
تلتصقُ بأجنحة العصافير
لتنقل صرخةَ الأسرى وهياج الماشية
من نافذة قصرك المهدمة، ترينها يا ليلى
مرعبة، سوداء في منتصف الليل
ومئات الأحضان المهجورة تدعو لفنائها
وسقوطِ هامتها
وردمها بالقشِّ والتراب والمكانس

حتى لو قدِّر للدموع الحبيسة بين الصحراء والبحر
أن تهدرَ أن تمشي على الحصى
لإزالتها تلك الحشرة الزاحفة إلى القلب
بالظلم والنعاس يتلاشى كل أثر
بالأنفاس الكريهة
والأجساد المنطوية كالحلزونات
بقوى الأوباش النائمة بين المراحيض
سنبني جنينة للأطفال
وبيوتاً نظيفة، للمتسكعين وماسحي الأحذية.
أتى الليل في منتصف أيار
كطعنة فجائية في القلب
لم تتحركْ
شفاهنا مطبقةٌ على لحن الرجولة المتقهقر
في المقصورات الداخلية ثمة عويل يختنق
ثمة بسالة مضحكة في قبضة السوط
الأنوارُ مطفأة.. لماذا؟
القمرُ يذهب إلى حجرته
وشقائق النعمان تحترق على الإسفلت
قشٌّ يلتهبُ في الممرات
وصريرُ الحطب يئنُّ في زوايا خفية
آلاف العيون الصفراء
تفتِّشُ بين الساعات المرعبة العاقة
عن عاهرةٍ، اسمها الإنسانية
والرؤوس البيضاء، مليئة بالأخاديد

يا رب تشرق الشمس، يا إلهي يطلع النجم

دعه يغني لنا إننا تعساء

عذبْنا ما استطعت

القملُ في حواجبنا

وأنت يا ليلى لا تنظري في المرآة كثيراً

أعرفك شهيةً وناضجة

كوني عاقلة وإلا قتلتك يا حبيبة.

لتشرق الشمس

لتسطع في إلية العملاق

الحدأةُ فوق الجبل

الغربةُ جميلةٌ، والرياحُ الزرقاء على الوسادة

كانت لها رائحة خاصه

وطعم جيفيّ حار، دعه

ملايين الإبر تسبح في اللحم.

♦♦♦

أين كنتَ يوم الحادثة؟

كنت ألاحقُ امرأةً في الطريق يا سيدي

طويلةً سمراء وذات عجيزة مدملجة

إنني الوحيد الذي يمرُّ في الشارع دون أن يحييه أحد

دعني، لا أعرف شيئاً

أطلقْ سراحي يا سيدي أبي مات منذ يومين

ذاكرتي ضعيفة، وأعصابي كالمسامير.

أنا مغرمٌ بالكسل

بعدة نساءٍ على فراشٍ واحد

♦♦♦

الجريمة تعدو كالمهر البرّي

وأنا ما زلتُ ألعقُ الدم المتجمدَ على الشفة العليا

مالحاً كان، من عيوني يسيل

من عيون أمي يسيل

سطّحوه على الأرض

الأشرعة تتساقط كالبلح

لقد فات الأوان

إنني على الأرض منذ أجيال

أتسكع بين الوحوش والأسنان المحطمة

أضربه على صدره إنه كالثور

سفلَة، دعني آكل من لحمه

بشدةٍ كان الألم يتجه في ذراعي

بشدة، بشدة، نحن عبيد يا ليلى

كنت في تلك اللحظة

أذوق طعم الضجيج الإنساني في أقسى مراحله

مئات السياط والأقدام اليابسة

انهمرتْ على جسدي اللاهث

وذراعي الممددة كالحبل

كنت لا أميّزُ أيَّ وجهٍ من تلك الوجوه

التي نصادفها في السوق والباصات والمظاهرات

وجوهٌ متعطشةٌ نشوى

على الصدر والقلب كان غزالُ الرعب يمشي

بحيرة التماسيح التي تمرُّ بمرحلة مجاعة

مجاعة تزدردُ حتى الفضيلة

والشعورَ الإلهي المسوَّس

لقد فقدنا حاسة الشرف

أمام الأقدام العاريةِ والثياب الممزقة

أمام السياط التي ترضعُ من لحم طفلةٍ بعمر الورد

تجلد عاريةً أمام سيدي القاضي

وعدة رجال ترشحُ من عيونهم نتانةُ الشبق

والهياجُ الجنسي

وجوه طويلة كقضبان الحديد

تركتني وحيداً في غرفة مقفلةٍ، أمضغ دمي

وأبحث عن حقد عميق للذكرى.

♦♦♦

النجيعُ ينشدُّ على طرف اللسان

والغرابُ ينهض إلى عشّه

الألمُ يتجول في شتى الأنحاء

والمغيص يرتفعُ كالموج حتى الهضبة

كادت تنسحب من هذا النضال الوحشي

من هذا المغيص المروع

رأسي على حافة النافورة

وماؤها الفضي يسيلُ حزيناً على الجوانب

من وراء المياه والمرمر

يلوح شعرُ قاسيون المتطاير مع الريح

وغمامةٌ من المقاهي

والحانات المغرورقة بالسكارى

تلوح بنعومة ورفقٍ عبر السهول المطأطئة الجباه

لم يعد يورقُ الزيتون

ولم تدرْ المعاصر، كلهم أذلاَّء

وأضلاعي تلتهبُ قرب البحيرة

إنها تسقي الزهور، أنا عطشان يا سيدي

في أحشائي الصحراء

أنقذني يا قمر أيار الحزين.

♦♦♦

استيقظي أيتها المدينة المنخفضة

فتيانك مرضى،

نساؤك يجهضن على الأرصفة

النهد نافر كالسكين

أعطني فمك، أيتها المتبرجةُ التي تلبس خوذة.

♦♦♦

بردى الذي ينساب كسهلٍ من الزنبق البلوري

لم يعد يضحك كما كان

لم أعد أسمع بائع الصحف الشاب

ينادي عند مواقف الباصات

الحرية منقوشة على الظهر

واللجام مليء بالحموضة.

ضعْ قدمك الحجريةَ على قلبي يا سيدي

الريحُ تصفر على جليد المعسكرات

وثمة رجل هزيل، يرفع ياقته

يشرب القهوة

ويبكي كامرأةٍ فقدت رضيعها

دعِ الهواء الغريب

يكنس أقواس النصر، وشالات الشيوخ والراقصات

إنهم موتى

حاجز من الأرق والأحضان المهجورة

ينبت أمام الخرائب والثياب الحمراء

وذئاب القرون العائدة بلا شاراتٍ ولا أوسمة

تشقُّ طريقها داخل الدم

تموتُ على الرمال البهيجه الحارة

لا شيء يُذكر، الأرض حمراء

والعصافير تكسر مناقيرها على رخام القصر.

وداعاً، وداعاً إخوتي الصغار

أنا راحلٌ وقلبي راجعٌ مع دخان القطار.

مصافحة في أيار

- هل وجدتَ عملاً؟

- لا.

- هل كتبتَ شيئاً؟

- لا.

- هل أحببتَ أحداً؟

- لا

لا.. ولكنني أشعر بزهوِ الجلاّد

بأنين الطيّار الذي يضربُ وطنه بقنابله

إنها تثير قرفي تلك السماء الزرقاء

إنها تثير شهوتي

تلك الأرصفة الطويلة الملساء.

الأرض والسماء والجبال الضخمه

الوحلُ والغضب

الموسيقا الناعمة تثير شفقتي.

ولكن صوتي خافتٌ وضعيف

وقلبي يذهبُ ويجيء كالفقاعةِ تحت الجلد

كعصفور أخضرَ بين سحابتين مهجورتين

لقد اهترأتْ ذقوننا على المناضد

والتوتْ أنوفنا من القبلات الطويلة.

- هل ترحل؟

ولماذا؟

هل لأعودَ في أواخر العمر

على عكازين وسخين

وأتمرَّغ على أول رصيف

يلوحُ لي من الوطن

أم لأعودَ لابساً قبعة من القش

متأبطاً ذراع امرأة

ضاجعها رجالٌ بعدد النجوم.

لا

سأظلُّ متكئاً على ريشتي حتى الشيخوخة

متكئاً على مرفقي

حتى يسيلَ اللحم على الخشب.

♦♦♦

لا.. إلى حفَّار القبور

أيها الأبله

إلى قبرٍ يتدلى كالجرس من عنق الصحراء

السهولُ التي نحلم بها لم توجد بعد

الانزواء في الغرف الرطبة

أيها الأبطال المجانين

الانزواء في الخنادق التي دمَّرَتْها الحرب.

وشوَّهتها أقدامُ المنتصرين

هذه ليست أصابع لكتابة الشعر

إنها مشاجبُ قديمةٌ للأظافر

وهذه ليست أرجلاً للمشي

إنها قطعٌ كبيرة من اللحم

لضربِ الإسفلت

للوداع، للشهرة

للاحتكاكِ بالوطن.. بالسراويل.

♦♦♦

الانحناء كالصقور الهاربة

أيها الشعراء الموتى

الاختباء في زحام القطارات

وتحت أذرع التماثيل

الرقاد على الحصى والغبار

على بطون الزوجات المتسخة

برائحة السمك والصابون

حتى تبزغَ شمسٌ جديدة

وعقولٌ جديدة

تفهم نعاسنا في المقاهي

وقهقهاتِنا خلف رذاذ السفُنِ وبكاء المدافع.

♦♦♦

الرجلُ المائلُ فوق البحيرة

يخطو نحوكم كالجلاَّد

الفلاحُ الحامل عقاله بين شفتيه

يخاطبكم وهو يهتزّ كالراقصة:

الأشجارُ ترحل خلسةً في الليل

تعود خلسة في الليل

سيطلع بؤسٌ كبيرٌ من قلب الحضارة

ستطلع أزهار قرعاء

وسنابل تتضوَّر جوعاً وعهراً

من قلب السهول التي أحببناها

من وراء النوافذ والنظّارات

حيث لن تبقى إلا السماء المجدبة

وآثار النجوم

الشبيهة بآثار الماشية في الصحراء.

♦♦♦

يا صديقي

ضع لفافةً إلى جانبي وارحل

لا...

تعالَ إلى نور المصابيح

لأراكَ وأنت تمشي

لأراك وأنت تعطي!!

الوشم

الآن

في الساعة الثالثة من القرن العشرين

حيث لا شيء

يفصل جثثَ الموتى عن أحذيةِ المارة

سوى الإسفلت

سأتكئ في عرضِ الشارعِ كشيوخ البدو

ولن أنهض

حتى تجمع كل قضبان السجون وإضبارات المشبوهين

في العالم

وتوضع أمامي

لألوكها كالجمل على قارعةِ الطريق...

حتى تفرُّ كلُّ هراواتِ الشرطةِ والمتظاهرين

من قبضاتِ أصحابها

وتعود أغصاناً مزهرة «مرة أخرى»

في غاباتها

أضحكُ في الظلام

أبكي في الظلام

أكتبُ في الظلام

حتى لم أعدْ أميِّز قلمي من أصابعي

كلما قُرِعَ بابٌ أو تحرَّكَتْ ستارة

سترتُ أوراقي بيدي

كبغيٍّ ساعةَ المداهمة

♦♦♦

من أورثني هذا الهَلَع

هذا الدم المذعور كالفهد الجبليّ

ما إن أرى ورقةً رسميةً على عتبة

أو قبعةً من فرجة باب

حتى تصطكُّ عظامي ودموعي ببعضها

ويفرّ دمي مذعوراً في كل اتجاه

كأن مفرزةً أبديةً من شرطة السلالات

تطارده من شريان إلى شريان

♦♦♦

آه يا حبيبتي

عبثاً أستردُّ شجاعتي وبأسي

المأساةُ ليست هنا

في السوط أو المكتب أو صفارات الإنذار

إنها هناك

في المهد... في الرَّحم

فأنا قطعاً

ما كنت مربوطاً إلى رحمي بحبل سرّة

بل بحبل مشنقة.

خريف الأقنعة

أيها المارة

أخلوا الشوارعَ من العذارى

والنساء المحجبات..

سأخرجُ من بيتي عارياً

وأعودُ إلى غابتي.

♦♦♦

محال.. محال

أن أتخيَّلُ نفسي

إلا نهراً في صحراء

أو سفينةً في بحر

أو.. قرداً في غابة

يقطفُ الثمار الفجَّة

ويلقي بها على رؤوس المارة

وهو يقفزُ ضاحكاً مصفقاً

من غصنٍ إلى غضنٍ.

♦♦♦

أنا لا أحمل هويةً في جيبي

ولا موعداً في ذاكرتي

أنا لم أجلسْ في مقهى

ولم أتسكعْ على رصيف

أنا طفل

ها أنا أمدُّ جسدي بصعوبة

لأدفن أسناني اللبنية في شقوق الجدران

أنا شيخ

ها ظهري ينحني

والمارة يأخذون بيدي

أنا أمير

ها سيفي يتدلَّى

وجوادي يصهلُ على التلال

أنا متسوِّل

ها أنا أشحذ أسناني على الأرصفة

وألحقُ المارةَ من شارع إلى شارع

أنا بطل.. أين شعبي؟

أنا خائن.. أين مشنقتي؟

أنا حذاء.. أين طريقي؟

مروحة السيوف

في المدن يستعملون المراوحَ والمرطبات
أماً في الصحراء، فماذا يفعلون
غير انتظار العاصفة؟
ولكن أين العاصفة؟
لا القلوعُ البيضاء تعرف
ولا الراياتُ الذابلةُ على التلال
أن العاصفةَ هناك
مترددةً وراء الأفق البعيد
كالبغيّ أمام عتبةِ الفندق
والنسرُ العجوز
آخرُ نسرٍ في التاريخ
ينتظرها وحيداً وصامتاً كالحوذي
امضِ إليها أيها النسر العجوز
وكفاك تذوقاً
لفضلاتِ السُّحُب والعواصف الغابرة
كالطاهي القديم
فالعاصفةُ قد لا تنهي زينتها قبل أجيال
ولكن كيف يمضي إليها
ومنقاره مهترئٌ كإبهام الحذّاء
كيف يسرع
وهو يترنح كدراجةٍ تعبر النهر.

عاماً بعد عام

والريشُ الأبيض يتّسخُ على صدره

كفُوَط الخدم

جيلاً بعد جيل

والنسيماتُ الصغيرة تدفعه

من صخرةٍ إلى صخرة

ومن سهلٍ إلى آخر

وهو مشيحٌ عنها، مستسلم لها

كبغيٍّ في معسكر

إنه يحنُّ إلى معركةٍ أخيرة

مع القدر

مع العاصفة

مع «ذبابة»

بهذه المخالب المتآكلة

والمنقار الذي كاد يستقيم

من كثرة ما ضربه على الصخور

في ساعات الذكرى:

فيما مضى

كان يفتلُ جناحيه كالأبّ الشرقي

يفتحهما كالأكمام الريفية المطرزة

ويهيمُ فوق المدن والقارات

بينما السحبُ والعصافير الصغيرة

تركض وراءه لاهثةً

كالغوغاء في مواكب الملوك

فيما مضى

فيما مضى

أما الآن

فلا شيء

غير الأسى والذكريات.

♦♦♦

كنس الغبار بجناحيه المتعبين

وربضَ تحت العوسجِ الذابل

كقاطع الطريق

موقناً أن العاصفةَ ستأتي

وأن أسنانها الغازية

سوف تلمعُ عما قريب

كأضواء السُّفن ومشاعل الثورات

وقد صمَّم على المعركة

بكل هزاله وأنقاضه

حيث الصحراءُ مقفرة

والمعركة بلا هتاف أو شهود

وطال انتظاره في الهجير

وفيما هو يكبو رويداً رويداً

كمسافر عجوز على طريق وعرة

ومخالبه تسيل كالحلوى الرخيصة على الرمال

مرَّت به نسمةٌ باردة كالينبوع

فتنهَّدَ منتشياً

كالمراهقِ وقد مسَّته امرأة

وتابع الرقاد من جديد..

تحت شمسٍ لاهبة

وعزلةٍ طويلة كالدهر.

وفجأة أظلم الأفق

وتمايلت العوسجة

وارتفع الذيلُ المتسخ بالعرق والدم

وانطلق الذبابُ الدفينُ في الجراح

مدوّماً لا يلوي على شيء

فانتفض قلبه من الفرح

وأخذ يقفزُ هنا وهناك

كخروفٍ يسعى لملاقاة أمه

العائدة من المرعى

لقد أقبلت:

سريعة ومدوِّمة كراقصةٍ على الجليد

قطار أحول من الطعنات

ينشد كبد الأرض للمرة الأولى

فليستفدْ من كل حبة رمل

وضربةِ مخلب

وليخرجْ من المعركة منتفخاً

فالعاصفة كالحصباء.. كموسيقا النصر

تأتي مرَّةً واحدةً ولا تعود

والنسر بلا قمةٍ أو عاصفة

كالعروس بلا أقراط أو دموع.

فتح منقاره خلسةً كصيَّاد الفراشات

وتراجع بحذر واحترام

كتلميذ أمام أستاذه القديم

... وأَنْشَبَهُ في العاصفة

في الرمال.. في الدماء.. في المسارح

في القبلات المذعورة

والخواتم التي تحمل شعر السلاميات،

في اللا شيء

وراح يدورُ كالمغزلِ وسط ريشه الممزَّق

وصيحاتُهُ المدوِّيةُ كطلقاتِ الرصاص

كتلةً من الدم والأبهة

تحاضر من وراء طاولة الصحراء

في فنّ العطش وتمزيق الأوصال

في الحلم الذي أتاه على طبقٍ من الهجير

خانقاً وحنوناً كالقبلات

وقد آن لأجملِ أسير في التاريخ

أن يزدردَ خرزه الأحمر خارج الأقفاص

أن يضع السلالم على كتف العاصفة

ويقطف ثمار حزنه كالبستاني

♦♦♦

ولكن العاصفة كانت تهزُّ كتفيها

كالراقصةِ الشرقية

تتمنَّعُ عليه كالمومسِ المحترفة

أمام مراهقٍ غرّ

حتى إذا ما سنحتْ لها الفرصة

فتحتْ باب الأفق..
وولَّت الأدبار
فجُنَّ جنونه
وراح يثبُ كالهرّ
كطفل مذعور يحاول عبثاً
بلوغ مطرقة الباب
وهو يرى كل شيء ينحني ويميل
الشمس والرمال والجراح
والأفق إلى جواره مجوَّف ومقزز
كالرحم بعد الولادة
ولحق بها مرغياً مزبداً
كسكير يحاول اقتحام ألحانه
بعد أن طرد منها مئات المرات
ولكن دون جدوى
لقد أسدلت العاصفة ستائرها
وأغلقت سجل الزوّار
وهنا بكى النسر العجوز
ورفع مخالبه كالأصابع المتضرعة
وراح ينتحب كالأطفال.
وبعد آلاف الأميال
وبعد كل ذلك الزهو والبطش الجارف
هَوَتِ العاصفةُ على شاطئ البحر
ووجهها ممزق كوجه الملاكم
لقد أقفر الصدر من النهود والأوسمة

وجُرِّدَتِ العروسُ من الخواتم والمرايا

واتكأتْ على الصخور

كسكّيرٍ أمام مغسلة

لقد كان في أعماقها ألمٌ مميت

أظافرٌ صغيرةٌ وصيحاتٌ حادة

أخذتْ تنبعُ كالنمل

من ثقوبِ الأنفِ والأذنينِ والبلعوم

لترقصَ كالغجر

على ظهرها المقوس والرهيب كالجسر

♦♦♦

من أين ينبعُ هذا الألم؟

هذه الطعناتُ المشتعلةُ كنيران الأعراس

من غطّى كفنها البربري

بهذه الجراح الغزيرة والندية كأهدابِ العاشق؟

وفيما هي تكبو رويداً رويداً

كمذنب يعترف بكل شيء

تذكَّرَتْ أن ثمَّةَ جداً قديماً

لكلِّ هذه الجراح والآلام

كان ينبشُ أعماقها كالكنز

ثمة شيء صغير كالبرغوث

قاومَ وناضلَ حتى الموت

ولا بدَّ أن كلَّ هذه الآلام القاتلة

وهذا الريش والصيحات المتراكمة

على فوهاتِ الجراحِ

من ذلك الشيءِ الصغير كالبرغوث
وفجأةً انطرحتِ العاصفة على قفاها
كخيمةٍ كبيرةٍ بحجم العالم
ثم تقلَّصَتْ بحجم المنديلِ وماتتْ
ودموعُها تسيلُ على هيئة نسر.

خريف المجد

قالوا لي: إن الحبّ موجود في كل مكان

فقط عليك أن تبحث عنه

ورحت أبحث وانقّب ولكن دون جدوى

كمن يبحث عن قطة في عرين أسد.

❖ ❖ ❖

وكانت قواي تستنفد كشجرة على ضفة نهر

يجفّ تارة ويفيض أخرى

ولذلك قررت أن أفتح صفحة جديدة مع الغيوم مباشرة

وأذلل العقبات التي قد تعترض طريقنا

كالظلام والمجد وعزة النفس

حتى الغيوم والطيور المعقدة نفسياً.

❖ ❖ ❖

ولكن يا إلهي...

ما هذا الصوت الساحر البعيد؟

لم يأتني متقطعاً مباغتاً كمطر الصيف؟

كجلبة الأغصان العارية وهي تستعد للاحتفاء بالربيع

أو كتبادل الأجنحة والمجاديف والاتجاهات في العاصفة.

أربعاء الجمر

قد أنسى قبعتي في مقهى

وقداحتي في بار

وعلبة التبغ في فندق

ومفاتيحي في أحد الأدراج

وحذائي في مجلس عزاء

والمكواة محماة على أفضل ثيابي وأغلاها

شيء لا أبالي به...

ولكن أن أنسى دفتري الذي أسجّل به أحزاني لحظة بلحظة، فهذا ما لا أحتمله..

فهو أكثر خطورة من قنبلة بيد طفل

أو حيوان منزلي تحت القصف

لأنه يحرق كل ما تحته

حتى الكلمات السماوية المقدسة

ولو كانت بحراسة مئات الملائكة،

هل الحزن أقوى من الإيمان؟

طريق الحرير

❖ ❖ ❖

كل يوم أكتشف في وطني مجداً جديداً

وعاراً جديداً

أخبار ترفع الرأس

وأخرى ترفع الضغط

مللت اللجوء إلى التبغ

والخمر

والمهدئات

وأبراج الحظ

إن سعة الخيال تمزق أعصابي

ولم تعد عندي حدود واضحة أو آمنة بين المجد والعار

والأمل واليأس

والفرح والحزن

والربيع والخريف

والصيف والشتاء

والمذكر والمؤنث

والمرفوع والمنصوب

وها أنا أضع أجمل وآخر قصائدي في أذني

وإصبعي على الزناد

وأنا واثق بأن حلقات الدخان ستتصاعد كأنها رصاصة حقيقية.

دروس في اللغة الصينية

-1-

لأنني أرى بأم عيني السرقات والجرائم الموصوفة.. عينية ومادية حيث أرى الطيور.. قليلة

والأشجار والفراشات وحتى النجوم في السماء... قليلة

صرت أشتاق للون الخاكي في الطيور والفراشات

حتى رغيف الخبز

ولذا أريد عسكرة كل شيء حتى النسيم العليل!

❖ ❖ ❖

كما أنني أريد أن أعرف:

كم سكيراً في كل حانة؟

وكم جائعاً في كل بيت؟

وكم مشرداً في كل شارع؟

وكم مريضاً في كل مستشفى؟

وكم مسافراً في كل محطة؟

وكم مُخبراً في كل مقهى

وكانت كل أصابع الاتهام تشير إلى الشتاء العجوز بسبب خرفه وحسده.. ولكن القضاء أطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة!

وقبض على الربيع فور يقظته من النوم بتهمة دس الدسائس والتخابر مع دولة أجنبية.

-2-

أطيلي من مقاومتك..

أيتها الأمعاء الخاوية
والشفاه العطشى
والعيون الدامعة
والسواعد النحيلة

❖ ❖ ❖

وأنت أيتها القضبان...
تعاطفي مع قبضات شعبي
وأنت أيتها السياط..
خففي الوطء على الظهور العارية
وأنت أيها البرد
ترفق بأطرافهم
وأنت أيها الوطن
ساعدهم بما تستطيع
فعندما تطرد لا تجد غير بيوتهم
وعندما تجوع لن تجد غير حقولهم
وعندما تعرى لن تجد إلاّ ثيابهم
وإنني لأرى الربيع على دراجته الخضراء
يظهر ويختفي من وراء التلال
كفرسان العصور الغابرة

-3-

هذا الحزن المتمرد
كيف أعيده إلى جادة الصواب؟
إنه نهد نكرة يبحث عن أصوله في أي غابة أو معسكر
ولكن حتى لو عاد بطريقة أو بأخرى..

فلن أخلط الأوراق فهي متنافرة كالجيوش الانكشارية.

أريد رعداً مسالماً

وبرقاً مليئاً بالشفقة

وريحاً صرصر...

تضم كل شيء إلى صدرها كالأم الحنون

❖ ❖ ❖

أيها النهد العثماني

رأيتك في أسواق مكة ومعك شراع فينيقي في دخان لفافة

وحلمة على طرف رصاصة.

يا شعري الأبيض المجنون

لأي حلاّق تسعى؟

أيتها الأرصفة..

سأريحك من خطواتي

أيتها الجدران..

سأريحك من ظلي

أيتها السنابل..

سأريحك من أسناني

أيها الأطباء..

سأريحكم من سعالي

أيها النائمون..

سأريحكم من غنائي

❖ ❖ ❖

في مجالس الشعب

في خنادق الشعب

في أسواق الشعب

في بساتين الشعب

وعلى جزر وشواطئ الشعب

من يخذلني؟

الحزن

أم الشعر

أم الطقس؟

حب أفلاطوني

كل الأيام التي قضيتها بلا طعام

والليالي بلا غطاء

وكل سخرية من أسمالي في الأعياد

وكل ليلةٍ قضيتها مشرداً في الشوارع

أو نائماً في البساتين والحدائق

وكل قملة عثرَ عليها هذا الحلاّق أو ذاك المفتش في رأسي

وعقب سيجارة ملتقطة من الشارع في فمي

وكل مرة انقطعت فيها المياه وأنا أستحم

أو انطفأت الكهرباء وأنا أحلق

أو الاتصال الهاتفي وأنا أتحدث

وكل مرة رُفض إذاعة اسمي في برامج ما يطلبه المستمعون

أو كتابته في بريد القراء

ورُفِض انتسابي لأي حزب

واشتراكي في أية مباراة أو مظاهرة

أو دخولي السينما أو المسرح

كمشجع أو مصفّر

أو صُفّق في وجهي باب أو نافذة

وطُردت من مقهى أو حانة أو عمل أو مدرسة

أريد ثمنه شعراً

أو صورة شعرية واحدة جديدة.

وعفا الله عما مضى!!

من جراب الكردي

ثمة صوت أبح كصوت سفينة تغرق أو تبحر
يغلظ لي القول على كل ما أحبّ وأبدع
في الشعر
والمسرح
والحرية
والطفولة
والربيع
وأنا لا ناقة لي ولا جمل ولا صحراء
في الوطن أو المنفى

❖ ❖ ❖

يا أزهار الرمّان البعيدة
يا أراجيح الطفولة
أنقذيني مما أنا فيه
لم أسرق رغيفاً في حياتي
ولم أؤذ نملة
ولم أزعج جاراً
ولم أقصّر في واجب
ولم أحنث بقسم
ولم أقطع حديثاً لأحد
ومع ذلك...
ما زلت المتهم الأول في كل واقعة

والشبح الذي تخوّف به الأمهات أطفالهن

إذا لم يأكلوا أو يناموا

عينان

عثرت في أرشيفي الشخصي على مجلة «الدنيا» الأسبوعية الدمشقية المحتجة، لصاحبها الأستاذ الجليل عبد الغني العطري. وقد استرعى انتباهي في المجلة المذكورة الصادرة في 2 شباط 1952، أنها تضمنت قطعة نثرية للشاعر محمد الماغوط، وكان يومذاك في حوالي الثامنة عشرة من عمره، واليوم نعيد نشرها للمرة الثانية كما وردت، ومن أجل التوثيق الأدبي والتاريخي لمسيرة هذا الشاعر الكبير الذي أسعد عشرات الملايين من خلال أعماله الإبداعية التي أشرنا إليها في بداية هذا الكتاب.

(هاني)

يا ناعس الطرف

لك في قلبي تحية لاهبة

عبقة الأوصاف..

كتبتها أنامل حبي!

دعني أشق طريقي إلى عرس الحياة

من بين أهدابك الحانية

على منبت الإغراء..

فأنا من الأسهم الخضر

قطفت ربيعي

ومن رفيف الأجفان الناعمة.

زرعت نجمي في سماء الألحان!

كيف تصحو أجراس قلبي

وترن في معبدها الشاحب

على مسرح العينين

ما دامت غيمة النعاس

تتلبد على شهوة الطرف

دعني أتيه قليلاً

بالتفاتة هادئة على مروج الحور

وبارتعاشة حمراء..

تنفثها الأسرار المختبئة

تحت الجبين

فهناك أحببت أن أصبّ رحيق الإغراء

في كأسي..

وفي البحرتين الهادئتين

أحببت أن أرمي شراعي

علّه يخفق إلى الأبد

سلمية ـ محمد الماغوط

في ساحة الرمي

أكره الغربة

الألم

الجوع

العطش

اللصوص

الحقد

الفقر

التسمم

الإقطاع

البرجوازية

الشرطة

النضال

الرقابة

الجواسيس

إسرائيل

السيارات المفخخة

العبوات الناسفة

الرعد، البرق، البراكين، الزلازل

وبعد ذلك عليَّ أن أحب الله!

ومع ذلك.. سأحبه وأعشقه

ولكن على أمل أن تكون هناك:

آخرة

ثواب

عقاب

ولو من أجلي على الأقل.

سنونو الضجر

صدئت أخطائي

ولم أكفّر عنها بحرف أو حركة

كل شيء عندي قديم ومستهلك

البيت

الجدران

الستائر

الثياب

القبعات

الخمر

ما عدا: الدموع

وارتباك الزهور عندما يداهمها الخريف

وجرح الأقوال عندما تدعمها الأفعال

وعندما واتتني المنية في أحد الأحلام

أوصيت بوطني لأول قاطع طريق

❖ ❖ ❖

أما أفعالي الملونة:

فقد أوصيت بالصفراء للخريف

والخضراء للربيع

والزرقاء للبحر

الرمادية للغيوم

والسوداء لأغاني الهجر والفراق

❖ ❖ ❖

المخبرون يتعقبونني في الشارع

في المقهى

في المسرح

في السجون

ولكنني حيث أتواجد أكون أكثر صفاءً وحناناً

من أمطار الله الشخصية في أعالي الجبال.

والإصبع على الشفتين

سكوت... مستشفى

سكوت.. إنعاش

سكوت... وفاة

سكوت... محكمة

سكوت... مرافعة

سكوت.. مناظرة

سكوت... دورية

سكوت... مداهمة

سكوت... تفتيش

سكوت... تحقيق

سكوت... طعام

سكوت... قيلولة

صه، سكوت، خشوع، مفاوضات ومصيرية

متى أصرخ؟

وأنا أغرق!

وأنا أحترق!

وراء القضبان، في مستشفى المجانين!

الوردة الأندلسية

لا .. لم يصبح العالم قرية صغيرة ولن يصبح

بل القرية الصغيرة صارت مدينة كبيرة

وإلاَّ .. فأين الطيور والزهور وطنين النحل:

أغاني الفلاحين ومناجل الحصّادين

وأجراس القطعان

وسقسقة الجداول

وأنين النواعير

وغبار البيادر والمطاحن

والغرابيل والمناخل المعلقة على الجدران

وجرار الماء على الأكتاف

والحناء والخلاخيل

والوشم على الأيدي والشفاه

❖ ❖ ❖

ولأن هذا لن يتبدّل إلاّ إلى الأسوأ

في المواصلات والاتصالات

والذهاب والإياب.

أردت كل شيء قريباً مني

ملتفاً حولي كتُويج الزهرة

كخيطان المغزل:

الفرّان

البقال

الحدّاد

النجار

الخيّاط

الحلاّق

أراجيح الأعياد

البلدية

المختار

دار القضاء

المحامين

الشهود

النائب العام

الجامع

المقبرة

باقات الزهور

❖ ❖ ❖

كل هذا على أن يكون بيني وبين أقرب مخفر أو سجن ما بين الأرض والسماء.

ولو كانت مكاتب الأمم المتحدة

ولجان حقوق الإنسان والحيوان تحيط بي من كل جانب.

❖ ❖ ❖

هذه أمنيتي

هذه هي أغنيتي

هذه هي صلاتي

هذا هو كابوسي

فما جدوى أن أكون محاطاً بأعرق وأجمل المعابد والكنائس وبقية الصخرة

وأجراس الميلاد.

وبيت لحم وأورشليم وكنيسة المهد

والله بعيد عني؟؟.

سان جون بيرس

بعد أن أقرأ رامبو أشعر بالحسد

وغوته بالخيلاء

ودستويفسكي أنفعل

وكافكا أضيع

وإليوت أتشاءَم

ومارك توين أفرح

وهمنغواي أنتحر

ولوركا أتساءل

وأدغار آلان بو ألهث

والمعلقات السبع أتثاءب

وبودلير أحلم

والمعري أبكي

ونزار قباني أعشق

والمتنبي أصهل

ولكن عندما أقرأ سان جون بيرس أشعر بالراحة الجسدية والعقلية وأتنفس

بحرية كعروق اللؤلؤ والمرجان في أعماق البحر

بين أسنان الحيتان والسلاحف وأسماك القرش

كما لو كنت في أحضان أمي أو جدتي

❖ ❖ ❖

وأغيب وأغيب وأعود إليك أيها الساحر الأزرق

ماذا ستفعل بي؟

إنك تفتح كل الطرقات أمامي بضربة مجداف واحدة

لكل كلمة درع من الكتابة

وحصانة دبلوماسية وكنسية

ومراكب سحر وجمال تتقدمها لمسافات بعيدة

القبائل والسرطانات البدائية

وما من كلمة تعرف مصيرها أو مَنْ وراءها؟

كمن بحر وسط عاصفة ثلجية

وفي كل حرف نابض بالحركة كالجنين

يسمع بوضوح كتقطع السلاسل

أو فرقعة الأصابع بعد غداء عمل

أو جليد قبلة في خطّ الاستواء

عنزة غاندي الجرباء

علناً، وعلى مرأى من العالم أجمع...

الكل يساوم على ما عنده

من بائع الزهور

إلى بائع الخردوات

إلى بائع النفط

إلى اللحام

البقال

الخباز

إلى الموسيقي

والشاعر

إلى الناشر

والموزع

إلى الفلاح الذي لا يملك إلاَّ عرقه

والعامل الذي لا يملك إلاَّ عضلاته

والعاهرة التي لا تملك إلاَّ فرجها

والمربية التي لا تملك إلاَّ سمعتها

❖ ❖ ❖

حسناً.. ليباع كل شيء في هذا الوطن

محاصيله

موقعه

آثاره

تراثه

ثقافته

رماله

شواطئه

مناخه

وحتى ورقة التين التي تستر أعضاءه

ومهما كانت الحاجة ملحّة والأسعار مغرية

لن أبيع ذرة من ترابه

وسيظل له الصدر ولي العتبة

وبدون مبالغة

إذا كان نجماً أنا سماؤه

جريحاً أنا محفّته

شهيداً أنا قبره

بولاً أنا مثانته

إنه سري الخاص

ولا أعرف عنه شيئاً

أكثر مما أعرف

عن ارتباط النخيل بالصحراء

والنوارس بالبحر...

جبل الجليد

بعد أن غدر بي الزمان وصحبة العمر

واعتكفت في منزلي المتواضع لسنوات

منصرفاً إلى التبغ والشراب والصراخ والشتائم

وكرهت كل ما يمتُّ إلى هذه الأمة بصلة كراهية هتلر لليهود

وأبدت عواطفي الشخصية والوطنية بمدفع رشاش

وتعهدت ببناء أعمق المقابر

والسجون وأوجع السياط

وغش الطعام والشراب والدواء حتى للأطفال المعوقين

وأحرقت الكتب والمكتبات

كما أحرق نيرون روما

وتاجرت بالنفايات النووية والكيماوية

وتهريب القتلة واللصوص والمجرمين

وصار لي ما أريد بحيث:

أنام حتى الضحى

ولي خدم يسهرون على راحتي

ويجهزون حمامي الساخن ويجففون أعضائي ويقلمون أظافري

ويعدون إفطاري

ويشرفون على قيافتي وهندامي بحيث تكون:

قبعتي بلون المطر

ومعطفي بلون السماء

وحقيبتي بلون الربيع

ومسبحتي بلون الخريف

ونظارتي بلون الأفق

وحذائي بلون الشعراء والقراء والنقّاد!

ومع ذلك.. أغنية لفيروز

أو ترتيلة لمحمود خليل الحصري

تجعل ذقني ترتجف

والدموع تنهمر من عينيّ وتغطي وجهي

وأنا أبحث عن قصاصة ورق أو قلم

كما يبحث المدمن عن مخدر.

احتمالات

إذا حققت كل أحلامي بضربة حظ واحدة

ماذا أفعل بعد ذلك؟

من يزرع ويحصد

ويملأ الشاحنات

ويفرغ البواخر

ويتعقب المجرمين

ويحرس المنشآت

ويجفف المستنقعات

ويوّزع الرسائل

ويكتب عن الذين لا يتمتعون بأية موهبة.

عن الجنون الذي سبق عصره؟

والأشجار التي تدفع البدل عن ربيعها لتريحه من الخدمة الإلزامية!

عندما يقول الموت كلمته الحاسمة.

ماذا يمكن للشاعر أو الطبيب أو الصيدلي أن يقول؟

كرسي الاعتراف

-1-

والريح تعصف والثلج يتساقط من حولي

جلست في كوخي الشعري المتواضع

ودفنت كستنائي العاطفية والجسدية والتاريخية

ورحت أنتظر

❖ ❖ ❖

يا رب...

ساعدني على قول الحق

ومواجهة الواقع

وتحمّل العطش

والجوع

والحرمان

وألاّ أردّ سائلاً

أو أنهر يتيماً

أو استرداد نفقات الأمل على الأقل

-2-

يد واحدة لا تصفق

إلى الجحيم لم تشبعوا تصفيقاً بعد؟

❖ ❖ ❖

ترميم زهرة

أو اقتحام قاعة

كله سيّان

❖ ❖ ❖

أسناني بصلابة منجلي

والتحف حقولي وسنابلي

وأنام على الطوى

❖ ❖ ❖

دموعي بعدد أخطائي

وأخطائي بعدد التزاماتي

❖ ❖ ❖

وشجاعتي بعدد أسلحتي

وتردّدي بعدد جبهاتي

❖ ❖ ❖

وساعات نومي بعدد كوابيسي

وكوابيسي بعدد وسائدي واتساع بلادي

وبلادي باتساع أرصفتي ودفاتري

بيروت آية بحرية

صباح الخير أيتها السطور

أيها الهامش

أيتها الصفحات البيضاء

أيها الكفن العريق المضياف...

وأنتم أيها المشيِّعون

ترفّقوا بما تحملونه على أكتافكم

فهو ليس فارغاً كما تتصورون

سيروا بهدوء

وسأشتري حزنكم بالسعر الذي تريدون

❖ ❖ ❖

بيروت...

يا أمي وطفلتي ومعبودتي!

تذكّرت ساحة البرج في «سرير تحت المطر»

وساحة الدبّاس في «الغجري المعلب»

وصخرة الروشة في «أمير من المطر وحاشية من الغبار»

وإلياس الديري في شارع شوران

وبول شاؤول في شارع الحمراء

وعصام محفوظ وفؤاد رفقه في مطعم بخعاري

والرحابنة في «غربة والمحطة وجبال الصوان»

بك جعت وشبعت

قاومت واستسلمت

تألقت وانطفأت

عريت واكتسيت

وحاورت وناقشت وصرخت:

لم لا تكون بيروت وحدها الهلال الخصيب؟

وكفى الله المؤمنين شر القتال!

لقد أحببتك وقدسّتك حتى كدت أشرك

❖ ❖ ❖

ولكن ما مضى قد مضى

وما فات قد فات

أخاطبك الآن من كهفي الذي خصتني به خارطة الطريق في جبال آرارات

حيث لا أحتاج إلى نفقات وإقامة طعام وتنقّل

فهناك من يدخل ويخرج ويأكل ويشرب ويناضل ويخون عني

بعد الذي والتي

اتحاد الكتّاب لا يقرر موهبتي كشاعر

ووزارة الصحة لا تقرر لياقتي كرياضي

ووزارة الزراعة لا تقرر مؤهلاتي كفلاح

ووزارة الأوقاف لا تقرر أهليتي كمؤمن

ووزارة الدفاع لا تقرر كفاءتي كجندي

ونظام المرور لا يقرر طريقي أو اتجاهي

ونقابة الفنانين لا تقرر ميولي في المجالات الأخرى

ومحاكم أمن الدولة لا تقرر وطنيتي أو عمالتي

ومختار الحارة لا يقرر حسن سمعتي وسلوكي

❖ ❖ ❖

الكل يريد أن يخرجني عن طوري؟

وها أنا أخرج عن طوري ومن بيتي

فماذا جنيتم؟

❖ ❖ ❖

ليل.. نهار

شروق.. غروب

مطر.. غبار

جبال.. وديان

شوارع.. منعطفات

سطوح.. خنادق.. استحكامات

شعر..

نثر..

مسرح..

تبادل تُهم ودموع وزيارات واتهامات واشتباكات ومماحكات!

وعندما أتعب أضع رأسي على كتف قاسيون وأستريح

ولكن عندما يتعب قاسيون على كتف من يضع رأسه؟

التقرير

كان عزمي بك

زلزالاً رياضياً ممشوقاً

يرقص كل عضلة في جسده العملاق حتى أذنيه وأنفه

وامتداداته تبحث دائماً عن مخرج من قمم الفكر والإبداع

وهو يعشق الفاكهة والخضراوات ويحيطها بهالةٍ من التقديس والاحترام

بحيث يعتبر من يأكلها أو يقترب بأسنانه منها وحشاً بشرياً

يجب أن يطارد حتى جباله ومغاوره

فهو مثلاً يرى في ثمرة الفليفلة الخضراء وجودية سارتر وعدمية كامو

وفي الحمراء إلياذة هوميروس

وفي الفاصولياء ملحمة جلجامش

وفي اللوبياء أصابع شوبان

وفي الرمان كافكا الفصول

وفي عنقود العنب عبقرية موزارت وضحكته الطفولية الساخرة

وفي الموز حواجب كليوباترا

واكتشاف البندورة يعادل اكتشاف الكهرباء أو أمريكا

أما البصل السلموني الشهير فهو وراء روائع المتنبي وكرامته وإقدامه

أما الكستناء والخرمة والكيوي

فيعتبرها فاكهة شبابية تذهب وتجيء دون أن يحس أحد بوجودها

كمطربي وشعراء هذه الأيام

❖ ❖ ❖

وكان يقيم في بستان على ضفة جدول ينبع ويغيب في أملاكه

وضيوفه رجالاً ونساءً أكثر تنوعاً من الفاكهة والخضراوات ذاتها:
طلاّب ناجحون أو راسبون، معلّمون، مفتشون، حدادون، نجارون، رياضيون، شعراء، نقّاد، مطربون، عاهرات، قديسات في سن اليأس أو التجنيد يجمعهم الفضول وحبّ الفكر والأدب:

هذا يقشر الفول

وذاك يشوي الباذنجان

وتلك تفرط الرمان

وشاعرة تقطع البندورة

وناقدة تهرس الثوم

ومطلقة تتذوق جميع الأطباق لتقدّر وتوافق على ملوحتها ونكهتها

بانتظار لفائف الشواء من أشهر مطاعم المدينة

❖ ❖ ❖

ثم عصفت الريح بالشواء وغير الشواء

فباع بستانه الواسع واستقر في آخر أصغر

ثم انتقل إلى حديقة

فحاكورة

فمسكبة

ثم إلى كهف

فإلى ممر بين عدة وجائب وأدراج متداخلة كأسنان الملاكم الخاسر في جولته الأخيرة.

وفي التوقيت العالمي والأممي للتمدد والتثاؤب وطرد الغازات في سماء المنطقة أسلم الروح في مأوى العجزة ، وهو يتمنى أن يُقرع جرس منزله أو هاتفه ولو عن طريق الخطأ!

إلى مقرئ منتصف الليل[2]

أيها الصوت العميق كالذكريات، كحفر القنابل

أعدني إلى البصرة.. إلى تهامة

وصيفاً للأميرات

أو راوياً في مجالس الملوك

لا تتركني وحيداً أنا وصرتي

على قارعة القرن العشرين.

❖ ❖ ❖

ماذا أفعل بهذه المدن واللافتات والشوارع

لست راقصة لأعيش تحت الأضواء

ولا بطلاً لأحيا بين الجماهير

إنني مجرد بدوي مشقق الروح والقدمين

يضع خفه تحت إبطه

وينتقل من عصر إلى عصر

كما ينتقل المشرد من قطار إلى قطار

أيتها الكلمات المزخرفة كمقابض السيوف

والآيات المتشابكة كالزيزفون في الربيع

بك أحتمي

وبك أستجير

عندما تنزع الأوتاد وترغي الجمال وتُطفأ النيران

أدرجوني أنا واسمي وذكرياتي وأحلامي

---

2 هو الشيخ محمود خليل الحصري.

كبساط.. كخيمة

وانقلوني تحت ضوء القمر

إلى أعماق الصحراء

إن رائحة الإبل

تعشش ﻓﻲ صدري كحليب الأم

وحداء القوافل العابرة

يتعالى من قمة رأسي كدخان البراكين.

توسل إستراتيجي

وأنا أتربع وراء مكتبي في قاع المجتمع تناهت إلى سمعي أصوات متنافرة من كل حدب وصوب.

الشوارع: لا تُنظفنا

الزجاج: لا تُمسحنا

الأشجار: لا تُسقنا

الجياع: لا تُطعمنا

الخونة: لا تُبرئنا

الشهداء: لا تَدفنّا

المشردون: لا تُؤْوِنا

الأطفال: لا تُرضعنا

الجرحى: لا تُسعفنا

السنابل اليابسة: لا تَحصدنا

الشوارع المظلمة: لا تُضئنا

فوضى المرور: لا تُنظمنا

المنتحرون: لا تُنقذنا

المضطهدون: لا تُنصفنا

السجناء: لا تُطلقنا

الأراضي المحتلة: لا تُحررنا

قل للثوّار العرب أن يدعونا وشأننا

الغجري

أعظم الكتّاب والشعراء والمؤرخين والفنانين والمناضلين

من غيفارا

إلى لوركا

إلى غويا

إلى همنغواي

إلى بيتهوفن

إلى عمر الخيّام

كتبوا ورسموا وأرّخوا وناضلوا وغنُّوا للغجر

لغرابيلهم، ووشم جلودهم،

وأدوات سحرهم وتنجيمهم،

وأساليب احتيالهم

وللجبال والوديان التي تحملهم

وللغيوم والطيور التي ترافقهم

ومع ذلك ما زالوا يسرقون البيوت ويعرقلون المرور

ويخطفون الأطفال من الشوارع

ولكن ثمة غجري في دفاتري يسعى منذ طفولتي لكي يسرق أية كلمة أو حرف ويسرع به إلى خيامه البعيدة، ليعرف إذا كنت لا أزال على العهد، ولن أخون الأعراف والتقاليد المتوارثة منذ أجيال.

وأقولها بصراحة رغم كل العواقب المتوقعة

إنني أعرف كيف أرقص

وأقفز

وأركض

وأهرول

وأزحف

وأطبخ

وأمسح

وأرسم

وأعزف

وأبكي

وأضحك

وأهرب

ولكنني لا أعرف كيف أخون؛ لأنه لا وقت لديّ

أو أنا مغفل كبير

أوكازيون البرابرة

يا ملوك الطوائف لقد فاتني القطار

وها أنا أحاول اللحاق به

وطرف جلبابي وقصائدي في فمي

تحت الثلج

والمطر

والريح

ولا يصلني إلاَّ دخانه البالغ الإيحاء

مثل كلمة خالدة في صدر سجن أو متحف.

❖ ❖ ❖

وها أنا أكتب الآن بقلم الرصاص

وبمحبرة من الرصاص

وعلى مكتب من الرصاص

وتحت سقف من الرصاص

على كرسي من الرصاص

ومع ذلك لا أحد يأبه لي

لأن رأس الحكمة مخافة الله

وذنبها الشعراء.

❖ ❖ ❖

أيها النهد العامر كمأدبة ناصري ليلة الفصح

أيتها النظرات التائهة كوطن أو سحابة قيد التكوين

أيتها الشواطئ الغاصة بالسفن والزوارق والصيادين والحمالين والمسافرين

والمودِّعين

الزموا الهدوء

فقادة الأمواج يصفّون حساباتهم القديمة

على ظهر مركب تائه وسكران.

مع قهوة الصباح

إذا لم يدفع الفقراء والشعراء الثمن،

فمن الذي يدفعه؟

❖ ❖ ❖

كلما كثر أعدائي تأكدت أني على حق.

❖ ❖ ❖

من جعل كل شجرةٍ مخفراً؟

ومن كل برعم متهماً؟

❖ ❖ ❖

الكرة بيدي وستظل بيدي حتى لا أكون كرة بيد أحد!

❖ ❖ ❖

لقد عايشت وعاصرت أعظم الثورات طموحاً ودموية وبربرية وهدراً للدموع والكرامات دون أن أطلق رصاصة واحدة.

وقد لبست أفخر الألبسة وأكلت أشهى الأطعمة دون أن أدفع درهماً واحداً.

ووصلت إلى أقصى ما يحلم به إنسان دون أن أخطو خطوة واحدة: شكراً للشعر.

المصادروالمراجع

1- حزن في ضوء القمر (شعر)، محمد الماغوط، طبعة دار العودة - بيروت.
2- غرفة بملايين الجدران (شعر)، محمد الماغوط، طبعة دار العودة - بيروت.
3- الفرح ليس مهنتي (شعر)، محمد الماغوط، طبعة دار العودة - بيروت.
4- البدوي الأحمر (شعر - نصوص جديدة)، محمد الماغوط، طبعة دار المدى- دمشق.
5- شرق عدن غرب الله (شعر - نصوص جديدة)، محمد الماغوط، دار المدى، دمشق.
6 - سأخون وطني (مقالات وخواطر)، محمد الماغوط، دار المدى- دمشق.
7- محمد الماغوط وصوبيا الحزب القومي، جان داية، فجر النهضة - بيروت ، 2009
8- محمد الماغوط سنونو الضجر، خليل صويلح، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية ، 2008
9- محمد الماغوط العاشق المتمرد، إعداد وتوثيق : علي القيم، منشورات وزارة الثقافة السورية ،2006 .
10- محمد الماغوط رسائل الجوع والخوف، عيسى الماغوط، المدى - دمشق ، 2009.
11- من أعلام الفكر العربي والعالمي في القرن العشرين، سليمان سعد الدين، مراجعة وتقديم : هاني الخيِّر (إصدار خاص) دمشق ، 1991.
12- الموتى يتحدثون، هاني الخيِّر، دار دمشق، ط1، 1988.
13- الأرشيف الشخصي والمفكرات الثقافية لهاني الخيّر
141- عدنان المالكي ثلاث رصاصات في الملعب البلدي، محمد نمر المدني، الدار الحديثة - دمشق ، 1996.
15- مجلة الدنيا الدمشقية الصادرة بتاريخ 2 شباط 1952 .
16- صحيفة الثورة السورية العدد (12824) 4/ 10/ 1952، مقال لمؤلف الكتاب عن شواهد القبور.

الفهرس